السيـــــــرة

فـــــن ونمـــــاذج

د/ سعـــد أبـــو الرضـــا

حقوق الطبع والنشر محفوظة
رقم الإيداع : ٢٠٠٩/٨٠٨٢
الدولي : ٩٧٧/١٧/٦٨٩٤/٨

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة

السيرة جنس أدبى يتطلب من الناقد سعة أفقه ، وسعة صـــدره ، الأولى ليتصل بالحياة ومتغيراتها اتصالا حميما لأنه يتلقى حيـــاة شخصية صاحب السيرة التى تختلف طولا وعرضـــا ، وســـعة وضيقا كى يتعامل معها تعاملا سويا فيثرى عقل قارئـــه ويمتـــع وجدانه ، ولا يتحقق شىء من ذلك إلا باتساع المعارف بـــصفة عامة ، والاتصال بالعلوم الإنسانية بصفة خاصة ، حتى يستطيع أن يوازن بدقة بين الصدق فيقبله ، والكذب فيرفضه ، وهنا تأتى سعة الصدر بما لها من خبرة بالحياة ومتغيراتها فتهـــىء الناقـــد للتعاطف والسبر وكشف مظاهر فاعلية شخصية صاحب السيرة ، وجلاء أمارات القدوة فيها . كما يضع يده على مواطن المتعة والتسلية والفكاهة ، وبذلك يكون قد لمس أهم أهـــداف الـــسيرة ودوافعها ، وحلل الشخصية وأعاد تركيبهـــا لتتجلـــى صـــورة صاحب السيرة شخصية متميزة يمكن أن تجتذب المتلقى ليقتدى ويفيد منها .

وقد قسمت هذا الكتيب إلى فصلين ، تسبقهما فاتحة تضيء السير فيهما ، فى الفصل الأول عرضت لمفهوم السيرة ، وأنواعها ، وبعض ملامحها ونماذجها فى التراث ، مقارنا بينها بعد تحليلها ، كشفا لدوافعها تاريخا وفنا وتسلية ، كما أشرت إلى أهمية سيرة رسول الله سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ، مشيرا إلى نشأتها ، وتطور تسجيلها وأثرها فى كتب الطبقات والتراجم ، ومظاهر اهتمام المسلمين بها ، كما أشرت إلى خصائص السيرة ، وصاحبها ، وأهم مزاياها .

وفى الفصل الثانى عرضت لنموذجين للسيرة الذاتية أولهما : سيرة الشيخ محمد عبده ، وثانيهما : الأيام لطه حسين ، مبرزا ما تتمتع به هاتان السيرتان من فاعلية وقدوة وتسلية ومتعة عمادها القص والقيم الجمالية التعبيرية ، ولعلى فيما أستقبل إن شاء الله أعرض لنموذج آخر للسيرة الغيرية ، بغية استكمال الأشكال والنماذج فى هذا المجال .

والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل ، منه العون ، وعليه التوكل .

د. سعد أبو الرضا

الفصل الأول

فن السيرة

بين المعنى اللغوى والاصطلاح الفنى :

السيرة : الطريقة [١] ، وسيّر سيرة : جاء بأحاديث الأوائل ، واستار بسيرته : استن [٢] ، وسار الوالى بالرعية سيرة حسنة .

فإذا ما نظرنا إلى دائرة المعارف البريطانية ، وجدناها تعرف السيرة بأنها : " ذلك المؤلف الروائى الذى يسجل بوعى وفنية الحدث ، ويعيد إلى الحياة وجود شخصية إنسانية " [٣] ، كما يعرفها معجم المصطلحات العربية فى اللغة والأدب بأنها : " فن ترجمة الحياة لشخص ما " [٤] ، مما سبق يتضح أن المعنى اللغوى وهو يتصل بالمسلك والفعل الحسن والقدوة والتاريخ ذو صلة وثيقة بالمصطلح .

والسيرة أو الترجمة نوع من الأنواع الأدبية ، يتناول بالتعريف حياة شخص أو أكثر من البارزين أو البارزات ، ويعرف بهم ، تعريفا يطول أو يقصر ، لجلاء شخصياتهم ، وإبراز مظاهر التميز ، وكشف عناصر العظمة فيهم ، ولذلك فهى ضرب من الكتابة التحليلية لما تتركب منه الشخصية من عناصر ، يمكن أن يهتم بها الآخرون [٥] ، وتحاول الترجمة الكشف عن هذه العناصر ، وهى من فنون النثر لارتباطها بظهور فن الكتابة النثرية ، كما أنها نشأت فى أحضان التاريخ ، ولذلك فهو يسهم فى تشكيلها . **والترجمة نوعان :**

١ – **الترجمة للآخرين (الغيرية)** عندما يترجم الكاتب لشخصية سابقة أو شخصية غير شخصيته ، وتعد سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم فى مقدمة هذا النوع ، وقد توفر عليها كتاب كثيرون واهتم بها المسلمون لما لها من أثر دينى كما سوف نوضح ،

وكتراجم العقاد فى العبقريات ، وترجمة "الرافعى" التى كتبها محمد سعيد العريان ، وترجمة " جبران " التى كتبها ميخائيل نعيمة .

وهى تسمى أيضا السيرة " الغيرية " :

والكشف عن عناصر الشخصية ، إنما يتم من خلال إبراز مواقفها من غيرها ، وهى تحتك بهم ، فى مختلف المجالات ، بناء على العلاقات الميدانية التى تجمع الشخص بغيره ، واختلاف المجالات وتباين العلاقات يوضحان كثيرا من جوانب الشخصية فى سلوكها وأقوالها وحركاتها ، التى تنبئ عن خصائصها ومزاياها ، وصفاتها المكونة لها ، التى يجليها هذا التحليل ، فتصرفات الشخص تتغير من مجال إلى مجال .

وعندما تطلق كلمة السيرة فقط فالغالب أنها يقصد بها هذه السيرة (الغيرية) تمييزا لها عن السيرة الذاتية ، أو الترجمة الذاتية ، كما أن كلمة سيرة تستخدم مرادفة لكلمة ترجمة عند كثير من الكتاب .

٢- الترجمة الذاتية : عندما يكتب الكاتب ترجمة حياته الخاصة الشخصية لنا ، مثل الأيام لطه حسين ، " حياتى " لأحمد أمين ، و" فى الخمسين عرفت طريقى " لمحمود الربيعيى و" حياتى فى الإدارة " لغازى القصيبى ، و" تباريح التباريح " لأبى عبد الرحمن بن عقيل الظاهرى و" أنا " للعقاد ، وقصة " حياتى " لأحمد لطفى السيد ، و " هذه حياتى " لعبد الحميد السحار و" حياتى " لأحمد أمين ، و" سجن العمر " لتوفيق الحكيم .

وفى مثل هذا النوع يجب على الكاتب إبراز الحياة الخارجية ، أى يهتم بتفاعله مع الحياة العامة ، وتفسير موقفه منها ، ولذلك فقد سمى ستيفن سبندر ترجمته لحياته " حياة خلال حياة "[٦].

بين السيرة والقصة :

وإذا كانت بنية القصة بنية تركيبية ، تتآزر فيها العناصر ، وتتضام لتجلي الشخصية ، فإن بنية الترجمة تحليلية لتكشف عن عناصر الشخصية ، هذا برغم ما فيها من جوانب تركيبية فى تصوير مجمل حياة الشخصية .

وإذا كانت الشخصية فى الترجمة تحتاج إلى التفسير والتقويم الكاشف عن جوانب عظمتها ، فإن كاتب القصة لا يتدخل فيها بمثل هذا التفسير والتقويم ، فالحياد من أهم سمات القصاص ، وإن كان له مندوحة فى التدخل غير المباشر أحيانا .

والشخصية المترجم لها شخصية حقيقية أو واقعية ، و " ظاهرة " تحتاج إلى تفسير ، لكن ذلك قد لا يوجد فى الشخصية فى القصة .

والتفسير والتقويم فى الترجمة يحتاجان إلى موازين دقيقة ، وثقافة وخبرة فى استخدام هذه الموازين ، وفهم وتمثل حتى يستطيع الكاتب جلاء جوانب تميز الشخصية ، وتقويمها .

كما تختلف الترجمة عن تاريخ الحياة ، فالأخير قد لا يحتاج إلى هذا القدر من الفهم والتمثل والتحليل والقدرة على الحكم ، إذ يحكمه عنصر الزمن إلى حد كبير ، لكنهما معا يحتاجان إلى المنهج النقدى لاختبار هذه الأخبار التى تروى، وتشكل الرصيد المعرفى للشخصية أو عنها [٧] .

وبرغم أن الترجمة تحتاج إلى الروح الروائية التى تجعل الشخصية حية ماثلة أمام المتلقى ، لكن الكاتب يجب أن يوازن بين الجانبين التاريخى والأدبى فى تشكيله للترجمة ، حتى لا يطغى أى من الجانبين على الآخر ، فتفقد الترجمة خصوصيتها فى كونها ترجمة للشخصية ، ونوعًا من الأنواع الأدبية ، فهى " سيرة فنية " .

بين السيرة والتاريخ :

هناك من يستبعد السيرة من التاريخ على أساس أنها تتناول حياة الشخصية من ميلادها حتى موتها ، وما يتضمنه ذلك من نضج ونمو ، وقد يرتبط به كثير من العواطف الإنسانية ، وليس هذا تاريخا ، من هنا يصبح عرض حياة الشخصية منفصلة عن المجتمع ، والنظر إلى كل ما يصدر عنها نظرة مستقلة بعيدة عن الحياة من حولها ، مما يضعف من صلة السيرة بالتاريخ ،

لكن تقديم صورة الشخصية فى نطاق الحياة من حولها ، متأثرة بها ، مؤثرة فيها ، متصلة بأحداثها العامة [٨] ، فاعلة فيها ، كل ذلك يكشف عن صلة وثيقة بالتاريخ ، والنموذج الأول قد يكون فرضيا منطقيا ، لأن عظمة الشخصية لا تظهر إلا باحتكاكها بغيرها وإسهامها فى تغيير الحياة من حولها ، هذا برغم أن الغاية الأخلاقية التعليمية قد تحكم بعض السير والتراجم ، وتجلى بعدها عن الأصل التاريخى ، كبعض السير فى أدب أوروبا المسيحية فى القرون الوسطى ، لكن حتى فى هذا المجال فإن الاختلاف بين الشخصية وغيرها لا يتضح إلا بأمرين : هما النظر إلى الشخصية وسيرتها فى ضوء عصرها ، وفاعليتها فيمن حولها ، وبذلك فصلة الشخصية – فى السيرة – لا تنفك عن التاريخ مهما كانت الغاية تعليمية أخلاقية ، ثم إن مما يكشف عن قيمة السيرة أو الترجمة ما تتضمنه من قدوة وفاعلية فى الحياة ، وإسهامها فى التأثير الإيجابى فى المتلقين ، وما تحققه من متعة لهم .

أثر السيرة النبوية الكريمة فى اهتمام المسلمين بكتب السير والطبقات والتراجم :

تتجلى صلة السير والتراجم بالتاريخ من اهتمام المسلمين بالقيمة الخلقية فيهما ، وذلك للتأثير العظيم للقرآن الكريم فيهم ، وهو يعمق إحساسهم بالتاريخ ، فيقص عليهم قصص السابقين للعبرة والعظة والتعليم . كما يعتبر بعض قادة الفكر كابن خلدون ، أن من غايات التاريخ الكشف عن القدوة الحسنة والاعتبار بالماضى ، وكذلك ابن حزم الذى ينصح بقراءة التاريخ " ليقف المتعلم على حمد المتقين للفضائل فيرغب فيها ، ويسمع ذمهم للرذائل فيكرهها " (٩) .

ويتأكد ما سبق من اعتبار ابن الجوزي التاريخ والسير وسيلة للراحة والعظة والتعليم ، " فشرح سيرة الحازم يعلم حسن التدبير ، وقص حكاية المفرّط يخوف من الإهمال ، وهكذا فالتاريخ لديه مجموعة متنوعة من السير " (١٠) .

ولقد كان الاعتداد بالغاية الخلقية واضحًا فى نشأة السير لدى المسلمين ، الذين بدأوا كتابة السير ، بسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم لما لها من أثر فى التشريع ، فهى تضم أعماله صلى الله عليه وسلم بجانب أقواله ، كما تضمنت المغازي ، حيث يقدم هذا الجانب سلوك الرسول صلى الله عليه وسلم هاديًا للجماعة الإسلامية ، وماذا يجب عليهم فى الفتوحات ، ومعاملة الأسرى ، وتوزيع الفئ ، وفنون الحرب ، وموقف المسلمين من الشجر والزروع والحيوانات والبشر قبل كل ذلك .

من هنا فقد خضعت السيرة ، لأحكام الإسناد ، تحريًا للصدق فى الخبر ، وقد ظهر ذلك فى تأليف التراجم عند المسلمين ، خاصة فى كتب **الطبقات والتراجم** ، وما أكثرها عند المسلمين ، فهناك معاجم لأصحاب كل علم من فقه وحديث وقراءة ، ونحو وصرف وأدب وشعر ، مثل " طبقات فحول

الشعراء " لمحمد بن سلام الجمحي " ت ٢٣١ هـ " ، وهناك معاجم لأهل كل مذهب من شافعية وحنابلة وأحناف ومالكية مثل " طبقات الشافعية " للسبكي ، كما أن هناك معاجم للبلدان " كتاريخ بغداد " للخطيب البغدادى ، أو تاريخ دمشق لابن عساكر ، وهما تراجم للمشهورين من الرجال [١١] ، وأولهما يتضمن أكثر من سبعة آلاف وثمانمائة ترجمة ، منها خمسة آلاف للمحدثين .

وهناك من الظواهر فى هذا المجال مالا نجد له نظيرا إلا نادرًا جدًا فى العالم ، من هذه الظواهر : اتصال العمل فى الحقل الواحد ، وتجلي ذلك فى الكتب المتسلسلة التى يذيل فيها اللاحق على عمل السابق : " فدمية القصر " للباخرزي (ت ٤٦٧ هـ) ذيل على " اليتيمة " للثعالبى (ت ٣٢٩ هـ) ، و " الخريدة " لأبى عبد الله محمد .. العماد (ت ٥٩٧ هـ) ذيل على " الدمية " ، بل إن أسرة واحدة بالأندلس هم بنو سعيد قد توارثوا صنع كتاب واحد هو " المُغرب " فى ترجمة رجال الأندلس [١٢] .

وقد ترجم ابن سعد فى الطبقات الكبرى ، للصحابة رضى الله عنهم وكبار التابعين بناء على التقسيم البلداني ، حسب الأمصار التى لحقوا بها ، وفى كل ما سبق يتضح أثر طريقة تدوين السنة والحديث ، مما يدل على خضوع كتب السير والتراجم والطبقات إلى قواعد إسناد الحديث ، وما أدقها ، حتى ليتضاءل بعض الأخبار بجوار الإسناد .

ابتعاد السير عن الإسناد :

ويلاحظ أن السير المستقلة ، قد أخذت تتخلص فى وقت مبكر من أثر الإسناد المنضبط الدقيق ، إلى ما يسمى " بالإسناد الجماعى " . أى أن الواحد منهم يذكر جميع رواته وأسانيدهم ،

ثم يجمع ذلك كله ويستخرج منه رواية واحدة على النحو الذى نجده فى كتبهم ، " وقد يفردون بعض الأخبار بسند خاص "[١٣]. لكن رجال الحديث ينكرون ذلك .

فابن إسحاق (ت ١٥٢ هـ) مثلا فى السيرة النبوية الكريمة [١٤] ، وسع المجال للشعر المنحول وغير المنحول ، وقبل بعض روايات عن أهل الكتاب [١٥] . وبرز الجانب التاريخى القصصى لديه ، بالإضافة إلى محاولة تخلصه من الإسناد ، مما عرضه للانتقاد ، خاصة من أصحاب مدرسة المدينة وعلى رأسهم مالك بن أنس .

هذا برغم أن السيرة النبوية التى كتبها ابن إسحاق قد أصبحت المصدر الأول لفهم حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وأعماله ، وذلك بجانب ما كتبه ابن سعد فى الطبقات ج ١ ، ج ٢ ، ومغازى الواقدي " ت ٢٠٧ هـ " ، و " أنساب الأشراف " للبلاذري .

وإذا كانت الكتب السابقة قد تحدثت عن الرسول صلى الله عليه وسلم كما صوره القرآن الكريم [قل سبحان ربي هل كنت إلاّ بشرًا رسولا] " سورة الإسراء آية ٩٣ " ، فإن من جاءوا بعد ذلك ، أكسبوا السيرة شيئا من التقديس ، وقد لا تتجاوز كتبهم جمع الروايات المختلفة أو شرح السيرة ، والتركيز على إثبات المعجزات ، منها :-

- فـ " الروض الأنف " للسهيلي (ت ٥٨١ هـ): شرح للسيرة
- و " إمتاع الأسماع " للمقريزي تلخيص لكثير من أحوال الرسول صلى الله عليه وسلم .
- و تدوين " دلائل النبوة " للبيهقي ينسب كثيرًا من المعجزات للرسول صلى الله عليه وسلم .

بعض خصائص كتابة السيرة النبوية الكريمة :

١- نشأت السيرة متفرعة من جمع الأحاديث ، وقبل ذلك كان لدى العرب التاريخ فيما يتعلق بأخبار آدم عليه السلام حتى البعثة الكريمة ، بل واهتمامهم بأيامهم فى الجاهلية .

٢- وكانت السيرة فى بدايتها محكومة بضوابط إسناد الحديث ، ثم تطورت من الإسناد الفردى إلى الإسناد الجماعى ، ثم تخففت من كل ذلك على مراحل .

٣- **ومن أهم كتاب السيرة :** كان عروة بن الزبير (ت ٩٢ هـ) وهو من أوائل من كتبوا السيرة ، فقد مكنه نسبه من أن يروى كثيرًا من الأخبار والأحاديث ، ثم تبعه أبان بن عثمان بن عفان (ت ١٠٥ هـ) رضى الله عنه ، ثم وهب بن منبه (ت ١١٠ هـ) وشرحبيل بن سعد (ت ١٢٣ هـ) ، وابن شهاب الزهرى (ت ١٢٤ هـ)، وعبد الله بن أبى بكر بن حزم (ت ١٣٥ هـ) [١٦] ثم ابن إسحاق المتوفى سنة (١٥٢ هـ) الذى يقال : إنه كتب السيرة بأمر من الخليفة المنصور ، ولكن نظرا لطولها ، فقد طالبه باختصارها بعد حفظ الأصل المدون فى خزانته كما أشرت سابقا .

٤- ويعتبر ابن هشام (ت ٢١٨ هـ) من أهم من تابعوا ابن إسحاق ، وكان البكائي (ت ١٨٣ هـ) أستاذه فى ذلك ، ويلاحظ أن ابن هشام ينسب كثيراً لابن إسحاق .

و يلاحظ على سيرة ابن إسحاق :

١- بداية التخفف فى الإسناد .

٢- وبها كثير من الشعر الذى قد يكون منحولاً .

٣- بالإضافة إلى اعتماده على بعض روايات أهل الكتاب.

٤- قدم الأستاذ عبد السلام هارون فى العصر الحديث تهذيبًا للسيرة التى كتبها ابن هشام [١] ، راعى فيها العناوين الميسِّرة ، والأساليب الواضحة فى الروايات ، وإن التزم المتن الأصلي .

وقد زودها بخمسة فهارس لتيسير قراءتها ، والاستفادة منها ، فهرس السير والمغازى ، يليه فهرس الأعلام ، ففهرس القبائل والطوائف ، ثم فهرس البلدان والمواضع ، وأخيرا فهرس الأشعار والأرجاز .

أهمية الغاية الخلقية فى السير والتراجم :

و بتطور الزمن أصبحت الغاية الخلقية تحتل الأهمية الأولى فى هذا المجال ، خاصة عندما تجلت نزعة الزهد فى العالم الإسلامى ، وانعكس ذلك على كتابة السير ، فركزت على حياة الشخص نفسه مصورة النواحى الجسمية والروحية ، وقد تنتزعه من مجتمعه فيتضاءل الجانب التاريخي ، وبذلك أصبحت مجموعة من الحكم والأمثال والأعمال الخيرة الفاضلة التى تقترن بالزهد ، وتصدر عن أحد من الناس ، مثل شخصية عمر بن عبد العزيز التى كتب عنها كل من ابن عبد الحكم وابن الجوزي والذهبي ، ومثل هذا النوع من السير ، أصبح " مجموعة من المناقب والأقوال يتأدب بها المتأدبون ، ويستغلها الواعظون فى استمالة القلوب إلى الخير " [١٧] .

وكذلك سيرة الحسن البصري لابن الجوزي ، وفيما سبق لا تتجاوز السيرة كونها مجموعة من الأخبار الخاصة التى يرجى منها خير العامة ، ووعظهم .

وبرغم ذلك فقد ظل للسير عند المسلمين اهتمام خاص بالتاريخ ، لإحساسهم القوى به ، بينما السيرة ذات الطابع الأدبى ، قد ضعف اهتمامهم بها .

دوافع كتابة السير :-

١- الاهتمام بالتاريخ ، ولعله قد وضح مما سبق أن الاهتمام بالتاريخ كان من أهم الأسباب للعناية بكتابة السيرة ، لما فى ذلك من العبرة والعظة ، والرغبة فى تسجيل الأعمال العظيمة ليقتدى بها المتلقون .

٢- النزعة الأدبية :-

أخذ الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) يصور فى كتبه الحكايات التى يبرز فيها نواحى الأخلاق والسلوك سلبا وإيجابا كما فى " البخلاء و" الحيوان " ومما يرويه الجاحظ جامعا بين الناحية الأدبية والتسلية ونقد السلوك وترشيده : (قال ابن حنان : كان عندنا رجل مقل ، وكان له أخ مكثر. وكان مفرط البخل ، شديد النفج . فقال له يوما أخوه : أنا فقير معيل ، وأنت عني خفيف الظهر ، لا تعينني على الزمان ، ولا تواسيني ببعض مالك ، ولا تتفرج لي عن شيء ! والله ما رأيت قط ولا سمعت أبخل منك ! قال : ويحك ! ليس الأمر كما تظن ، ولا المال كما تحسب ، ولا أنا كما تقول في البخل ولا في اليسر والله لو ملكت ألف درهم ، لوهبت لك خمسمائة ألف درهم ، يا هؤلاء ، فرجل يهب في ضربة واحدة خمسمائة ألف درهم يقال له بخيل !)

(النَّفجُ : الفخر بأكثر مما عنده ...)

وهو هنا يصف بخيلا ، يفخر بأكثر مما عنده ، ويعتمد الجاحظ فى صياغته على " التقابل " المحورى الكاشف عما بين الأخوين من تباين ، بخيل شديد البخل ، كثير المال ، كثير التباهى ، وأخيه شديد الفقر ، كثير العيال ، فى أمس الحاجة إلى عون أخيه ، وقد جاءت هذه المقابلة خلال " موازنة " كشفت عن تطلع الفقير إلى مساعدة أخيه الغنى له ، الذى لا يقدم إلا الكلام دون الفعل ، والادعاء الأجوف دون المعاونة الفاعلة ،

من ثم تتابعت الثنائيات اللغوية المبينة عن هذا التباين : (مقل .. ومكثر ، فقير معيل .. ، وغنى خفيف الظهر ..) ، كما تكررت " لا " النافية الكاشفة عن تقصير هذا الأخ الثرى وحاجة هذا الأخ الفقير : (.. لا تعيننى .. لا تواسينى .. ، لا تتفرج لى عن شىء ..) ، وهكذا تتآزر الجمل الاسمية الكاشفة عن ثراء الثرى ، وفقر المعول تأكيدا للتباين بينهما ، كما يربط العطف بين الأفعال المبينة عن حاجة هذا الأخ الفقير ... الذى لا يجد من أخيه القادر إلا تكرير نفيه لزعم الغنى والمقدرة ، ثم ادعاء الكرم ادعاء متنفجا لا يقدم ولا يؤخر .. ولا يواسى . ولا يعين .. ، كما دعم " التقابل " بين ضمائر التكلم وضمائر الخطاب جوانب هذا المواقف بين ثراء وبخل أحد الأخوين ، وفقر وحاجة الآخر ، لإثراء التسلية والتوجيه الاجتماعى الرشيد للمتلقى " .

وقد تآزرت الصور للإبانة عن هذا المسلك المشين ، وتجلى هذا البخل الشديد ، والتباين بين حالي الأخوين ، الكاشف عن شدة ثراء الثرى البخيل ، وشدة حاجة الفقير المعيل .. (مفرط البخل ..) شديد التنفج .. ، معيل .. ، خفيف الظهر .. ، وقد أكد المستوى الإيقاعى كل ما سبق : بتتابع الجمل القصيرة .. وتوازنها ، وتكرير لا النافية ، وضمائر التكلم وضمائر الخطاب التى تجسد التفاعل بين حالى موقف الأخوين ، وتبرزهما.

بينما كتب أبو حيان التوحيدى (ت ٤١٤ هـ) الرسائل فى ترجمة الأشخاص ، وقد كان يتمتع بمقدرة قصصية يمكن أن توظف الخيال لربط أجزاء السيرة فى وحدة كاملة ، لتحقق الجانب الأدبى ، كما اتجه غالبا إلى الإنصاف والعدل وعدم التحيز ، وإن كان كثير الشكوى من الزمن وسوء الحال ، لحاجته وفقره ، وأنه لم يقدر كما كان يرجو . وقد ظهر ذلك

واضحا فى رسائله ، ومنها كتابه " الصداقة والصديق " ، وكتابه " الإمتاع والمؤانسة " الذى ، يتألف من ثلاثة أجزاء ويتضمن الأحاديث والأسمار التى كانت بينه وبين الوزير أبى عبد الله العارض [١٩] ، فى أربعين ليلة تقريبا ، وقد أضاف إلى ما سبق ثلاثة رسائل اثنتين منها إلى الوزير نفسه ، والثالثة هى الأخيرة التى ختم بها الكتاب ، وقد كانت للشيخ أبى الوفاء المهندس ، الذى كان صديقا لأبى حيان ، وصديقا للوزير نفسه ، " وهو الذى قربه من هذا الوزير ، ووصله به ، ومدحه عنده حتى جعله من سماره " [٢٠] ، وبذلك فقد طلب منه أبو الوفاء أن يرد له الجميل ، فيكتب له ما دار بينه وبين الوزير فكانت هذه الرسائل مرتبة حسب ما دار فى كل ليلة من الليالى الأربعين . وإليك آخر رسالة [٢١] . وهى التى كتبها أبو حيان للشيخ أبى الوفاء المهندس :

أيُّها الشيخ ، سلمك اللهُ بالصُّنْع الجميل ، وحقق لك وفيك وبك غاية المأمول .

هذا آخِرُ الحديث ، وخَتْمُه بالرِّسالتين ، ويتقرَّرُ جميعُ ما جرى ودار على وجْهِهِ ، إلا ما لَمْتُ به شعثًا ، وزيَّنْتُ به لفظا ، وزِدْتُ منقوصا ، ولم أظْلِمْ معنى بالتَّحريف ، ولا مِلْتُ فيه إلى التَّحْوِير ، وأرجو أن يبْيضَّ وجْهى عِنْدك بالرِّضا عنِّى ، فقد كاد وعْدُك فى عنايتك يأتى علىّ ، وأنا أسألُ الله أن يحْفظ عنايتك علىّ ، كسابق اهتمامِك بأمرى ، حتى أمْلِك بهما ما وعدْتنيه مِنْ تكْرِمة هذا الوزير الذى قد أشْبع كلَّ جائع ، وكسا كلّ عار ، وتألف كلّ شاردٍ ، وأحسن إلى كلّ مُسىء ، ونوه بكلّ خامِل ، ونقق كلّ هزيل ، وأعزّ كلّ ذليل ، ولم يبْقَ فى هذه الجماعة على فقره وبُؤسِه ، ومُرِّه ويأسِه ، غيرى ، مع خِدْمتى السالفة والآنفة ، وبذْلِى كلّ مجهود ، ونسْخِى كلّ عويص ، وقيامى بكلّ صعْب ، والأمورُ مقدَّرة ، والحُظوظُ أقسام ،

والكدْح لا يأتى بغير ما فى اللوْح " . وهى لا تخرج فى بنائها عن المقالة : مقدمة ، وموضوع وخاتمة .

فى المقدمة ، سلم عليه وحياه ، ودعا له ولنفسه بتحقيق المأمول على يديه ، وهو وصله بهذا الوزير ، كما حاول أن يبين أنه كتب كل ما جرى بينه وبين الوزير من أحاديث وأسمار ، مشيرا إلى أنه التزم العدل والصدق وتحرى الصواب ، راجيا أن يكون قد حقق لأبى الوفاء ما يجعله راضيا عنه .

كما دعا الله أن يديم عليه عناية أبى الوفاء به ، حتى يحقق له ما وعده به من فضل وخير ووصل بهذا الأمير .

من ثم فقد امتدح أبو حيان ذلك الوزير الذى غمر فضله كل الناس : الجائع ، والعارى ، والشارد ، والمسىء ، والضعيف .. حتى لم يبق من محتاج إلا أبا حيان برغم ما قدم من خدمة سابقة وآنفة .

كما اختتم الرسالة بإيمان بقضاء الله وقدره ،وأن الإنسان مهما كد لا ينال إلا ما قدره الله له ، وهو ختام موفق ، والرسالة عامرة بكثير من الوسائل التعبيرية ، فقد حققت براعة الإستهلال ولباقة الختام.

كما كانت جملها قصيرة ، متماثلة النهايات فى سجع غير متكلف : لممت .. ، زينت .. ، زيّدت .. ، وتوازن بين الصيغ ، وتقابل بين ضمائر الخطاب والتكلم ، بحيث يشيد بالمتحدث إليه ، ويكشف عن احترامه وتقديره له فكثرت ضمائر الخطاب وقلت ضمائر التكلم تقريبا : " وأرجو أن يبيض وجهى عندك بالرضا عنى ، فقد كاد وعدك فى عنايتك يأتى على ، وأنا أسأل الله أن يحفظ عنايتك على كسابق اهتمامك بأمرى ، حتى أملك ما وعدتنيه من تكرمة هذا الوزير .. " ، كما أن ضمائر التكلم لم تأت إلا لإجلال المخاطب . ويرتبط ذلك بالانتقال بين

ضمائر الخطاب والتكلم فى " التفات " يكشف الدلالة ويثريها ، ويلفت النظر إلى فعل الوزير .

وعندما تحدث عن فضل الوزير استخدم صيغة العموم " كل " سبع مرات مضافة إلى أنواع المحتاجين ، حتى استوعبهم جميعا ، مبينا أن فضل الوزير قد محا كل الاحتياج والفقر والعرى والإساءة والذلة ، وبذلك فقد تغيرت أحوالهم ، بينما أبو حيان لم يزل على حاله من الفقر والعوز والحاجة ، وبذلك يوضح هذا " التقابل " حاجة أبى حيان إلى فضل أبى الوفاء المهندس ، كى يوضحها للوزير حتى يشمله بكرمه ورعايته وعنايته ، خاصة وقد وظف أيضا لفظ العموم " كل " ثلاث مرات للكشف عن تلك الحاجة وهذه الخصاصة التى مثلتها لفظة " غير " التى حققت هذا الاستثناء المثير للعطف ، والمستدر للعون .

ويتصل بما سبق صياغة أبى حيان للتراكيب التى كشفت عن عوز وفقر المحتاجين ، وبيان أثر الوزير فى إزالة ما بهم من ضر ، فقد جاءت فى " تقابل " مثير ، مفعم بالكشف عن عظمة فعل الوزير الذى " .. أشبع كل جائع ، وكسا كل عار ، وتألف كل شارد ،وأحسن إلى كل مسيء ، ونوه بكل خامل ، ونَقَق كل هزيل ، وأعز كل ذليل .. " (٢٢)

وبالنسبة للمستوى التصويرى الذى دعم التراكيب السابقة مبرزا مقدرة أبى حيان الأدبية واللغوية ، فقد مزج بين الماديات والمعنويات فى صور تشخيصية كاشفة ... ويتقرر جميع ما جرى ودار على وجهه ، إلا ما لممت به شعثا ، وزينت به لفظا ، وزيدت به نقصا ، ولم أظلم معنى بالتحريف .. " (٢٣)

وقد دعم ما سبق المستوى " الإيقاعى " المتمثل فى قصر الجمل وتساويها ، وتوازن الكلمات ، والسجع غير

المتكلف الذى يثرى إيقاع العبارات القصيرة المتساوية والمتتابعة للتأثير بحال أبى حيان وحاجته إلى المخاطب الشيخ أبى الوفاء المهندس ، ورعاية الوزير له ، بل كل من يقرأ هذه الرسالة أو المقالة .

ولعله قد وضح التمايز بين أسلوبى الجاحظ وأبى حيان برغم أنهما كانا علمين متميزين فى الصياغة الأدبية فى القرنين الثالث والرابع الهجريين.

ويلاحظ أن أبا حيان التوحيدى يتسم فى كتابته للسير :-

١- بالعدل لأنه يذكر المزايا والعيوب

٢- لأنه يدلل على ما يقول ، وقد يذكر أراء غيره

٣- حاول الكشف عن فاعليه الشخصية ، بإبراز تفاعلها مع واقعها ومجتمعها

٤- اعتماده على التحليل للكشف عن صفات الشخصية (الكرم - ومعاونته لكل الناس ..)

٥- أكسب أسلوبه شيئا من الجمال اعتمادا على بعض الوسائل التعبيرية دون تكلف كالسجع والموازنة والصور البيانية وتوظيف الضمائر .

٦- كما اعتمد على بث الروح الروائية فى السيرة بجانب ما تتضمنه من تاريخ.

وفى الوقت نفسه وجدنا من يثقل الترجمة بالمحسنات والتكلف ، كالباخرزى فى دمية القصر .. (ت ٤٦٧ هـ) ففى ترجمته مثلا

للأمير أبى الفتوح زعيم مكة : وهو الحسن بن جعفر بن محمد الموسوى الحسنى الطالبى القرشى ، يثبت له بيتين من الشعر ويعلق عليهما فيقول فى هذه الترجمة :

" للأمير أبى الفتوح زعيم مكة حرسها الله تعالى :

وصلتنى الهموم وصل هواك ∴ وجفانى الرقاد مثل جفاك

وحكى لى الرسول أنك غضبى ∴ يا كفى الله شر ما هو حاك

وهذا كلام عليه أمارة الإمارة ، وله ملاحة البداوة ، ورشاقة الحضارة ، ولا شك أن لهذين الزوجين أخوات تجرى مجراهما ، غير أن الرواة لم يتداولوها ، فتسرى مسراها ، وأنا بعون الله وحسن تيسيره من وراء طلبها ، حتى أهدى إلى اللثات التى نصب لها ضربا من ضربها إن شاء الله تعالى " (٢٤)

وهذه قد لا تكون ترجمة ، إلا من حيث ذكر اسم صاحب هذين البيتين اللذين سجلهما له الباخرزى ، ثم تعليقه عليهما ، تعليقا مختصرا خاليا من التحليل والتفسير ، مع الإشارة إلى توقعه أن يكون له أبيات أخرى ، لكن الرواة لم يتداولوها ، دون ذكر لمناسبتهما ، التى قد تكون واضحة ، فهما فى الغزل ، وإن كانت بقية تفاصيل المناسبة غير واضحة وغير معروفة ، ولا حياة القائل نفسه ، لكن الكاتب معنى بالمحسنات المتكلفة .

هنا قد تبتعد الترجمة عن الوضوح فى رسم الشخصية ، كما قد لا يتضح اهتمامها بالجانب التاريخى ، أو التحليل النفسى ، وإنما هى تقريظ خالص ، يقلل من مقدرة الكاتب على الوفاء بأصول الترجمة ، خاصة إذا كان من يترجم له حيا .

ومن أهم سمات كتابة الباخرزى فى السير والتراجم :

١- حرصه على المحسنات البديعية المتكلفة ، ولذلك لا يضيف جديدا إلى الفكرة الأساسية .

٢- اقتصر على المزايا دون العيوب ، مما يقلل من أهمية عرضه للشخصية ، بل لقد بالغ فى ذكر هذه المزايا .

٣- لم يقم بتحليل الشخصية فلم يكشف عن احتكاكها بغيرها فى المواقف المختلفة ، أو بمن تأثر ، أو فيمن أثر ؟

٤- لم تظهر الروح الروائية لانشغال الكاتب بالمحسنات المتكلفة

٣- السمر والتسلية :

وإذا كانت النزعة الأدبية من الدوافع التى حدت بهؤلاء الذين أشرنا إليهم ممن عنوا بالتراجم ، فإن الحاجة إلى السمر والتسلية ، كانت أيضا من هذه الدوافع ، خاصة عندما تصبح الترجمة كتابة عن الشخصية ، وقد لا تتضح من الغاية الخلقية ، كما قد تتضاءل الجوانب التاريخية ، وإنما هى مجموعة من المغامرات والقصص ، وتصاغ للتسلية فى أسلوب مبسط ، مثل سير المحبين مع حبيباتهم " كقصص العذريين " ، وسير عقلاء المجانين ككتاب المدائني عن أخبار " عقلاء المجانين " ، و " سيرة سيبويه المصري " لابن زولاق وهو المؤرخ " أبو محمد الحسن بن إبراهيم (ت ٣٨٧ هـ) ، وسيبويه هذا " واسع الثقافة ، يعتريه طائف من جنون " وإذا ما أغضبه الناس ، تدفق كلامه " مسجوعا ، وقد لا يخلو من هجاء متقن جارح " وقد روى ابن زولاق طرفا من أقواله وغريب أحداثه ، وقد شغل حياة ابن زولاق كما شغل حياة معاصريه . (٢٥)

وإلى جانب اهتمام ابن زولاق بكتابة سيرة سيبويه المصري فقد كتب سيرة بعض حكام مصر ، كأحمد بن طولون ، وخمارويه ، والإخشيد محمد بن طغج ، والمعز لدين الله الفاطمى ، وقد وضح فيما كتبه ابن زولاق الروح القصصية ، والاهتمام بالنواحى الاجتماعية ، التى يتجلى فيها روح العصر ، وتسجيل مشاهداته ومسموعاته ، فكتاباته أشبه بالمذكرات التى لا تخلو من جوانب تاريخية وملامح أدبية ، برغم ما فيها من شذوذ وغرابة قد يثيران الضحك والرثاء .

ومن السير المسلية سيرة " أشعب " ، و " جحا " ، وغيرهما من السير الهزلية المضحكة .

وهناك أيضاً سير المتصوفة ، التى تهتم بالكرامات ، مما قد يبعدها عن دائرة الواقع ولذلك فهى ليست متفاعلة مع الحياة ، حتى إن هناك من يستبعدها من دائرة السير لابتعادها عن الحياة [٢٦] . وإن كنا نرى فيها ضروبا من لفت النظر إلى قوة العقيدة ، ومثالية الخير واستثارة المتلقى ، وحثه على الخلوص إلى الله سبحانه وتعالى ، مما قد يحقق جانب القدوة فيها .

ومن السير التى كان السمر أيضا من دوافع نشأتها وقد تبتعد عن الواقع أيضاً – كسير المتصوفة – ، نوع من قصص البطولة العاتية كسيرة عنترة ، والمهلهل ، وسيف بن ذى يزن ، وتتميز بما فيها من بطولات شديدة ، فهى تعتمد " المثال " ، وهذا سر ابتعادها عن الواقع ، فهى لا تهتم بالحياة الطبيعية العادية للشخصية ، التى يمكن أن تكون مناط القدوة والفاعلية . وقد تكون أقرب إلى الواقع أحياناً من سير المتصوفة ، وذلك عندما يهتم كاتبها بحالات الضعف البشرى فى شخصيات هؤلاء الأبطال .

مظاهر التباين بين السير :

ونظراً لأن المؤرخين المسلمين كانوا يعتبرون السيرة تاريخا ، فقد ظلت السيرة التاريخيه حتى العصر الحديث ، من أقوى أنواع السير عندهم ، خاصة وهى قد تجمع بين الغاية الأخلاقية والجانب الفنى ، برغم أن التاريخ هو الباعث عليها .

وتعتبر سير الحكام من أهم جوانب التاريخ ، لكنها تختلف اختلافاً واضحاً من حيث دوافعها وأهدافها ، فسيرة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وسيرة عمر بن عبد العزيز ، وصلاح الدين الأيوبى يتضح فيها الجانب التاريخى والجانب الخلقى التوجيهى ، كما تتجلى فيها العبرة والعظة .

بينما سيرة غيرهم قد تكون غير ذلك ، فقد يكون الدافع إليها طلب الإبن مثلا كسيرة الإخشيد ، أو قد تكتب السيرة بدافع الولاء للحاكم ممن يعيش فى كنفه ورعايته من كتابها ، تقديراً للرابطة بينهما ، فقد كتب أحمد بن يوسف (ابن الداية) (ت ٣٣٤ هـ) وكذلك ابن زولاق سيرة أحمد بن طولون لصلتهما به .

وقد أعاد أبو محمد البلوى كتابتها ، مسوغاً ذلك بأن أحمد بن يوسف لم يحسن ترتيبها ، ولم يستوف أجزاءها ، وكانت شخصية ابن طولون نفسه لها من المزايا ما يدفع إلى ذلك ، فقد كان عصره عصر يقظة ونهضة أدبية وفكرية ، وقد زكى هو من ذلك ، " و شخصيته شخصية الشاب الأمين الفقير الذكى " [٢٧] المتواضع ، الزاهد برغم إقبال الدنيا عليه ، فقد كان مرابطاً فى أحد الثغور ، ومثل هذه الشخصية محببة عند الشرقيين ، وربما كان ذلك من عوامل الانصراف عن القصة والمسرحية ، وعدم التوجه إليهما ، برغم أنهما لم يكونا معروفين بالمعنى الحديث لهما ، لكن يمكن أن يكون فى كتابة السيرة تعويضاً عنهما ، وتفسيراً لعدم التوجه إليهما فى هذه الفترة [٢٨].

ويلاحظ أن السير التاريخية التى تدور حول الحكام ورجال السياسة تعنى بالأحداث الخارجية المتصلة بهم ، أما سير العلماء فتعنى بسرد أسماء أساتذتهم ، والأماكن التى زاروها " و معظم جهودهم فى تحصيل العلم وما واجهوه من صعاب وما تحلوا به من صبر [٢٩] ، كما تعنى السير بسرد الصفات الخلقية والعقلية ، وما يصور ذلك من قصص .

وتتباين أساليب السير ، كما سبق أن أوضحنا فمنها ما هو هادئ وبسيط لا مبالغة فيه ، كسيرة الصاحب بن عباد لأبى حيان التوحيدى ، وسيرة ابن طولون للبلوى ، وكتابات ابن

زولاق ، والقاضى بهاء الدين بن شداد ، فالأخير فى سيرة صلاح الدين لم يهتم بالمقدمات الطويلة عن الأيوبيين ، كما عرضه من خلال أعماله دون تزيد أو مبالغة ، بينما نجد بعض السير متكلفة الأسلوب مثل الباخرزى فى " دمية القصر " ، ومثل " سيرة السلطان جلال الدين " للنسوي ، حيث يكثران من المبالغات الشديدة ، ويتضح فيهما التكلف فى الصياغة .

وكثير من السير يصور الأحداث السياسية ، من ثم فهى قد تصور أحداث فترة كاملة ، كسير " السلطان جلال الدين " و " الملك الظاهر " ، و " عمر بن عبد العزيز " لابن عبد الحكم ، ولا تُعنَى هذه السير بدقائق حياة الشخصية إلا إذا صورت صفة من الصفات التى تميزها ، كالعدل أو الشجاعة أو الكرم .

وهناك من السير ما لا تعرض للأخطاء وعيوب الشخصية ، اللهم إلا للاعتذار عنها ، مما يجعلنا نكون على حذر فى التعامل مع مثل هذه السير ، إذا اعتمدنا عليها فى إعطاء صورة صادقة ، فقد يكون باعثها الميل والهوى .

لذلك فإن كتابة السيرة التاريخية لم تتطور تطورا ملحوظا ، من الناحية الفنية ، وإن ما بينها من فوارق قد يكون مرده إلى الإحساس بالتاريخ ، وتمثله ، فسيرة ابن طولون للبلوى يمكن أن تكون تصويرا للنواحى الاجتماعية والسياسية بمصر ، بينما سيرة " صلاح الدين الأيوبى " للقاضى بهاء الدين بن شدادا تهتم أكثر بالأحداث الحربية ومعارك صلاح الدين الأيوبى .

وإذا كانت السير قد أصيبت بما أصيب به الأدب عامة بعد القرن السادس من تكلف ، فقد سلم بعضها لغويا ، واحتفظت بصور للحياة الاجتماعية والسياسية فى هذه العصور .

أنواع السير :

وقد تتعدد أنواع السير وتقسيماتها ، فقد سبق أن قسمناها على أساس شخصية كاتبها إلى سيرة ذاتية عندما يكتبها صاحبها نفسه ، وأخرى غيرية عندما يكتبها شخص آخر غير صاحبها.

وهناك تقسيم للسيرة بناه ليون إيدل على أساس الحقائق وتصويرها فذكر ثلاثة أنماط هى [٣٠] :

١- السيرة التأريخية (التقليدية) : وهى تعتمد السرد التأريخي " الترتيب الزمنى " للأحداث ، وتتميز بالسعة ، وتحتل الوثائق فيها مكانة كبيرة ، وهى مليئة بالحوادث الكثيرة .

٢- السيرة التصويرية : وهى إبداع لفظى لشىء قريب من صورة الرسام ، وتعتمد هذه السيرة على الانتخاب الدقيق ، فهى سيرة موجزة ، وتستخدم فى كتابتها بعض الحوادث التى تبرز شخصية المرء ، وتستطيع هذه السيرة عن طريق البحث النقدى أن تعطى صورة ما للعقل أو للشخصية المبدعة .

٣- السيرة القصصية التصويرية أو الروائية : وفى هذا النوع تصهر الوثائق وتصفى حتى تبرز منها شخصية قائمة تعمل فى بيئة متغيرة ، ويكون الأسلوب هنا روائيا ، ولا يهتم كاتب مثل هذه السيرة بالتسلسل التاريخي الدقيق ، وقد يذكر بعض الحوادث التافهة وذلك فى سبيل توضيح الشخصية ، وقد يعمد إلى الانتخاب والتحليل النفسى ، كما قد يعمل كاتب السيرة على تحديد الملامح الشخصية ، والتعليق على الأحداث والتحليل لها ، وكاتب السيرة هنا يوحد بين خضم من الحقائق فيؤلف بينها فى وحدة مهمة .

هذا وقد انتقد ليون إيدل السيرة التأريخية بأنها : سيرة آلية ،وتنتهى بجعل الحياة سطحية ، وتصبح كأنها صحيفة تقفز من خبر لآخر دون ربط بينها .

والأفضل فى نظره هو استخدام السيرة التصويرية أو القصصية " اللتين تغيران التسلسل التأريخي دون أن تصيبا الحقيقة بسوء ، وفيهما أيضاً طريقة مسرحية ، تمكننا من نقل مرور الزمن بيسر أكثر " [٣١] .

ويعمل كاتب السيرة على إثارة الخيال ، برغم إخبارنا بالحقائق الصحيحة .

بينما هناك تقسيم ثالث يقوم على أساس طبيعة كتابة السيرة نفسها ، واتجاهاتها : قام به د. إحسان عباس :-

١- فمنها ما هو ذو طابع أكاديمي يهتم بالشرح والتحليل والتدقيق ، دون تكلف ، وعرض الروايات لاستخلاص الحقائق ، وهذه تتطلب قدرة شديدة على النقد اللازم ، والترتيب الكاشف عن نمو الشخصية وتطورها ، وإلا جاءت روايات أقرب إلى التاريخ مكدسة دون نظام ، وربما كان من يقوم بها أكاديمياً يهتم بالبحث والدرس .

٢- وقد نجد اتجاهاً آخر يتمثل فى بعض السير التى لا يخرج كتابها عما قاله السابقون ، دون عناية بالنقد والتمحيص كتهذيب سيرة ابن هشام لعبد السلام هارون برغم قيمتها الأخلاقية فيما احتفظت به من أخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومحاولته تيسير تقديمها للناس وتخليصها من كثير من التعقيد ، سواء فى طول السند أو سرد الأحداث ، وبما أضافه إليها من فهارس متعددة مفيدة .

٣- بينما هناك اتجاه ثالث يتخذ السيرة الفنية مجالا لكتاباته ، وتتجلى عنايته بالفرد وإنسانيته ، برغم ما يبرزه فيه من جو تاريخي ، فيكشف عن حياة الشخصية ، وصراعها وتفاعلها مع بيئتها ، وأثرها فيها ومناقشة بعض آراء المخالفين فى قيمة الشخصية وأثرها ، مثل " حياة محمد " صلى الله عليه وسلم

لمحمد حسين هيكل ، و " عبقريات " العقاد ، و " حياة الرافعى " ، لمحمد سعيد العريان ، و " جبران " لميخائيل نعيمة.

وإذا كان هناك من ينتقد هيكل أو العقاد فى أنهما لم يعطيا نفسيهما حرية الكتابة ، وقدما نماذج ثابتة ، ولم يقدما صورة إنسانية [٣٢] ، وأن العاطفة الدينية قد حصرتهما فى دائرة ضيقة ، فهذه دعوى تتجاوز الظروف والملابسات التاريخية والحضارية التى كتبت فيها هذه السير ، إذ كان من بين أهداف كتابة هذه السير الرد على دعاوى بعض المستشرقين التى تنتقص من الشخصيات الإسلامية بدافع العصبية .

ثم إننا فى مطالع عصر النهضة الحديثة ، كان يعوزنا القدوة الصالحة فى وقت أوشك الغرب بفكره ونماذجه البشرية أن يحتل عقولنا بعد أن احتل أرضنا ، من هنا فقد كنا بحاجة إلى هذه النماذج الإسلامية الرفيعة ، لتشبع فى نفوسنا البحث عن القدوة الصحيحة الصالحة ، التى بتمثلها تستقيم حياتنا ، كما نجد فيها العبرة والعظة .

ثم إن الكتابة عن سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته رضوان الله عليهم يجب أن تكتب بطريقة يراعى فيها أن هذه شخصيات متفردة ، والتاريخ خير شاهد على ما أنجزته هذه الشخصيات فى قيادتها لأمتها ، وضربها أروع الأمثلة للإنسانية .

بل إن العقاد بكتاباته للعبقريات انتهج نهجاً علمياً أدبياً فى إبراز صفات الشخصية ، وجلاء جوانب العظمة فيها ، معتمداً على دقة الكلمة وإيحائها ، والتحليل والبرهنة ، وتوظيف الحادثة التاريخية التى تجلى ذلك النهج بصرف النظر عن صغرها أو ضخامتها ، مما يعلى من طريقة العقاد فى كتابة السيرة الفنية .

أما " حياة الرافعى " لمحمد سعيد العريان ، و " جبران " لميخائيل نعيمة ، فقد كانت صداقة كل من الكاتبين لمن يكتب عنه ، من المسوغات التى جعلت كلا منهما يعرض لجوانب حياة الشخصية ، بجوانبها الإيجابية والسلبية ، لدرجة جعلت بعض المتلقين يثور ضد الصورة التى قدمت لهاتين الشخصيتين ، اللتين كانتا فى نظر بعض هؤلاء المتلقين صورة مثالية ، فبينما كشف محمد سعيد العريان عن عدم انتظام الرافعى فى مواقيت عمله فى وظيفته مثلاً [٣٣] ، كشف ميخائيل نعيمة عن اضطراب علاقات جبران الزوجية [٣٤] .

السيرة الذاتية :

إذا كان حديث الشخص عن نفسه قد يصدم نفوس الآخرين بما يتراءى فيه من غرور فهل لذلك أثر فى السيرة الذاتية ؟

إن السيرة الذاتية ، حديث لفرد متميز عن نفسه ، وربما كان تفوقه ظاهراً ، من هنا فإن كتابة ذلك ربما بدت أخف من حكايته علناً أمام الآخرين ، كما أن للكتابة مسوغاتها الإبداعية ، بالإضافة إلى أن المتلقى فى حالة قراءته للسيرة يتمتع بالحرية فى مواجهتها ، والقدرة على التفكير فيما يقرأ ، مما يسمح له بالتأمل والمناقشة والتفنيد والرد أو القبول والاعتقاد .

كما أن هناك فرقا بين الإثنين ، فالأول كلما تحدث عن نفسه أمام الآخرين قد يستثير شكهم ، فقد يكون شخصاً عادياً فى نظرهم ، بينما الثانى تتضاعف الثقة فى حديثه ، إذ يدرك القارئ له أنه لم يكتب إلا لميزة ندرك تمتعه بها ، ووضوحها فى حياته وقد يتفرد بها ، وأنه يحاول أن يربط ما بيننا وبينه [٣٥] ، بحديثه عن تجاربه ودخائل نفسه ، وفى ذلك لون من المكاشفة بين المبدع والمتلقي ، قد يريح الطرفين ، كما أن

كتابة السلبيات كما يرى علماء النفس قد يكون وسيلة للتطهير والتنفيس .

وربما تكون تجربته تجربة ناضجة ، يدرك المتلقي أثرها فى نفسه إذ يجد فيها القدوة الصالحة .

وقد يكون حديثه مرتبطاً بصراعه مع حياة تتسم بالاضطراب أو الاستبداد ، وهو يحاول أن يواجهها ويثور عليها ، من أجل إحقاق الحق ، وذلك منزع يستهوى النفوس ، خاصة إذا كان ذا نظرة خاصة متميزة ، وقد تصبح نوعاً من القلق النفسى الذى يدفع أصحابه المهتمين فنيا لكتابة تجاربهم عندما تصبح متكاملة الجوانب ، تدعمها رؤية فلسفية للحياة وقضاياها ، ومن ثم فهى تحقيق للذات .

وليس معنى ذلك أن التجارب الروحية فقط هى التى تدفع أصحابها لكتابتها ، ولكنها من أهم التجارب الدافعة إلى ذلك ، كتجربة الغزالى فى " المنقذ من الضلال " ، و" اعترافات " تولستوي ، و" أيام " طه حسين، وسيرة ابن خلدون، وابن سينا ، وأبو حيان التوحيدى فى " الإشارات " ، وابن حزم فى " طوق الحمامة " .

إن أصحاب النظرة الخاصة المتميزة إلى الحياة ، ممن يسبقون عصرهم بذلك ، الذين تتضح الغايات الكبرى فى سلوكهم ، تجتذبنا كتاباتهم لسيرتهم بأنفسهم ، خاصة عندما نشعر بأهمية مواقفهم فى الحياة ، وفنية صياغتها .

وإذا كنا نجد القدوة فيما سبق ، فكذلك أصحاب الأخطاء الجسيمة عندما يكتبون سيرهم تجتذبنا ، إذ نجد فيها العبرة والعظة ، والمواقف التى يجب أن نتجنبها .

المهم فى السيرة الذاتية أن نجد فيها ما يقنعنا بتفرد كاتبها لخصوصية تجربته ، وربما كان هناك من السير ما لا يتضح فيها ذلك كثيراً ، لغلبة الجوانب التاريخية ، كسيرة سلامة موسى

" تربية سلامة موسى " [٣٦] ، عندما يترك الحديث عن تجربته ، إلى عرض الجوانب التاريخية والأحداث التى رآها وعاصرها ، ولذلك فحظها من السيرة الذاتية قد يكون قليلا .

إن قيمة السيرة الذاتية بتفاعل صاحبها مع الحياة ، ومحاولته تقديم تفسير لها ، وكشفه عن التطور الذاتى فى داخل النفس وخارجها ، فى بناء فنى يبتغى إيجاد تواصل بينه وبين المتلقى ، لا مجرد مذكرات أو يوميات ، كما تكشف عن إنسان أكثر من مجرد عرض حوادث .

من **أنواع السير الذاتية :**

١- الإخباري المحض : الذى يتحدث فيه صاحبه عن نشأته ، وتربيته ، وحال أبيه وأسرته ، وشيوخه ومعلميه ورحلاته وما قرأ من كُتُب ، وما كَتَب .مثل " مياومات " القاضى الفاضل ، ورحلة ابن جبير ، وسيرة ابن سينا .

٢- ما يكتب للتفسير والتعليل والتسويغ والاعتذار عما يكون من تقصير ، مثل سيرة المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازي ، وسيرة ابن خلدون . أما أولهما فقد كان داعية للفاطميين ، ويؤمن بالمذهب الإسماعيلي وله مراسلات بينه وبين أبى العلاء حول تحريم اللحوم وأكل النباتات . أما ابن خلدون فقد تقلد القضاء فى مصر ثم عزل ، بجانب صلته ببعض الحكام فى بعض البلاد الإسلامية . وهنا قد يعرض بعض كتاب السيرة إلى شرح وتفسير بعض جوانب الصراع الروحى كما فى سيرة ابن الهيثم ، والغزالى فى المنقذ من الضلال .

٣- سيرة المغامرات فى الحياة ، مثل
" الاعتبار " لأسامة بن منقذ [٣٧]

السيرة الذاتية فى الأدب العربى :

تتميز بما يلى :

١- قد تخلو من الصراع الذى يخلق الفن ، ويمثل إحسان عباس بابن خلدون الذى ولي القضاء ، وعزل ، ولم يفعل شيئاً سوى الهجرة ، وقد فقد أسرته عندما غرقت بهم السفينة ، فلم يفعل شيئاً سوى الذهاب إلى مكة للعزاء ، وفى تصورنا أن هذا مسلك إيجابى يتميز باللجوء إلى الله . (٣٨)

٢- وقد لا تتضح فيها التعرية النفسية : ويراد بذلك أنك لا تجد فيها تفصيلات عن خصوصيات كاتبها ، حتى ابن حزم فى طوق الحمامة ، وإن أشار إلى بعض خصوصياته عن تجربة ومشاهدة ، لكن ما أكثر حديثه عن تجارب الآخرين وذلك ما قل من صراحته ، وبرغم أنه فقيه ، لكنه كشف عن بعض خصوصياته عندما استبطن أحواله النفسية ، ولذلك قد يعتبر بعض المفكرين كتاباته عن الحب القائمة على التجربة والمشاهدة من أصدق الكتابات.

٣- قد تخلو من التعمق النفسى : وهذه الصفة تتضح فى معالجة كاتب السيرة لدخائله ، وعرض وتحليل الجوانب النفسية لمواقف حياته ن ولكن قد تفتقر السيرة الذاتية والمذكرات اليومية إلى التعمق النفسى ، الذى يتطلب أن تكون هناك خلفية فلسفية للشخصية ، وذلك لا نجده إلا نادراً عند من ينصرفون عن تعداد مآثر الذات وذكر سلبيات الآخرين.

فى العصر الحديث :

١- أول سيرة ذاتية فى العصر الحديث تقريباً " الساق على الساق فيما هو الفارياق " لأحمد فارس الشدياق . ويتحدث فيه عن حياته وما واجهه فى رحلاته ، وينتقد بعض أنواع السلوك

فى مجتمعه الشرقى ، وبعض ما صادفه فى المجتمع الغربي ، كما يتميز بأسلوب أدبى جميل ، ووصف لبعض جوانب الحياة .

٢- وتعتبر " الأيام " لطه حسين من أهم السير الذاتية شكلا ومضمونا . وسنعرض لبعض جوانبها بعد عرض وتحليل لسيرة الشيخ محمد عبده .

من شروط السيرة الفنية :

١- الاهتمام بالتاريخ

٢- تحقق القدوة والفاعلية

٣- الموضوعية والعدالة فى الأحكام

٤- تحقيق التسلية والمتعة

٥- الصياغة الفنية والموازنة بين الجانبين التاريخي والفنى

٦- الترابط بين العناصر وتحليلها

٧- الروح الروائية بشرط ألا يطغى عليها الخيال وتهمل الحقائق

من خصائق كاتب السيرة :

١- سعة ثقافته وخبرته وذكائه .

٢- الإلمام بجوانب الشخصية .

٣- الأمانة والعدالة .

٤- توفر المصادر لديه .

من خصائص صاحب السيرة :

١- القدوة : ويقصد بها الاهتمام بالجوانب الإيجابية.

٢- الفاعلية ، التى تتجلى فى احتكاكه بغيره ، وأثره فى الاخرين ، وموقفه ممن حوله ، فى إضاءته للحياة ، والعمل على تقدمها وازدهارها وانتقادها .

الهوامش :

١- محمد بن أبو بكر الرازى (ت ٦٦٦ هـ) ، مختار الصحاح ، ط دار الجيل بيروت صـ ٣٢٥

٢- الفيروز بادى ، القاموس المحيط ط ، مؤسسة الرسالة ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م ، بيروت صـ ٥٢٩

٣- انظر مادة Biography فى
Encycolopedia Britanica Volum e: 3

٤- مجدى وهبه وكامل المهندس : معجم المصطلحات العربية فى اللغة والأدب طـ ٢ سنة ١٩٨٤ م ، مكتبة لبنان صـ ٢٠٥

٥- انظر عبد الغنى حسن : التراجم والسير ، من سلسلة فنون الأدب العربى : الفن القصصى (٢) ، دار المعارف ، القاهرة صـ ٩ . وكذلك انظر : د. عز الدين اسماعيل : الأدب وفنونه : دراسة ونقد ، دار الفكر العربى ط ٢ سنة ١٩٥٨ م صـ ٢٤٤

٦- انظر السابق نفسه صـ ٢٤٨

٧- انظر السابق نفسه صـ ٢٤٦ ، صـ ٢٤٧

٨- انظر إحسان عباس : فن السيرة ط ٦ سنة ١٩٩٢ م ، دار الشروق للنشر والتوزيع ، بيروت صـ ١٢

٩- انظر السابق نفسه صـ ١٢ ، ١٣

١٠- السابق نفسه صـ ١٣

١١- انظر السابق نفسه صـ ١٥

١٢- انظر السابق نفسه

١٣- د. حسين مؤنس : دراسات فى السيرة النبوية ، الزهراء للإعلام العربى القاهرة سنة ١٩٨٥ م صـ ١٤ ، ١٥ وكذلك انظر أبو الحسن على الباخرزى ، " " دمية القصر وعصرة أهل

العصر " ، تحقيق محمد الحلو ، ط ١٩٦٨ م ، نشر دار الفكر العربى القاهرة ، جـ صـ ١١ .

١٤- يروى أن ابن اسحاق دخل على الخليفة المنصور ، وكان عنده ابنه المهدى ، فطلب المنصور من ابن إسحاق أن يصنف له كتابا من خلق الله آدم عليه السلام إلى هذا اليوم الذى جمعهم ، فكتب هذه السيرة ، لكن المنصور رأى أنها طويلة ، فطلب من ابن اسحاق ، اختصارها . واحتفظ بالنسخة الكبيرة فى خزانة أمير المؤمنين . [عبد السلام هارون : تهذيب سيرة ابن هشام ط ٣ ، ١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع صـ ٩ ، ١٠]

١٥- د. إحسان عباس : فن السيرة صـ ١٦

١٦- انظر عبد السلام هارون ، تهذيب سيرة ابن هشام ط ٢ ١٣٩٦ هـ / ١٩٧٦ م وكذلك انظر د. شوقى المعاملى : السيرة الذاتية فى التراث صـ ٤٣

١٧- د. إحسان عباس فن السيرة صـ ١٦

١٨- الجاحظ : البخلاء : دار الكتاب العربى ، سوريا سنة ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣ م صـ ١٣٦

١٩- هو أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن سعدان وزير صمصام الدولة البويهى. انظر أبو حيان التوحيدى : الإمتاع والمؤانسة جـ ٣ : تصحيح وضبط وشرح أحمد أمين ، وأحمد الزين ، منشورات المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت صـ هـ

٢٠- السابق نفسه صـ د.

٢١- السابق نفسه صـ ٢٢٥.

٢٢- السابق نفسه صـ ٢٢٦

٢٣- السابق نفسه والصفحة نفسها

٢٤- أبو الحسن على بن الحسن بن على الباخرزى : دمية القصر وعصرة أهل العصر ، تحقيق عبد الفتاح الحلو ، ط دار

الفكر العربى (مطبعة المدنى) القاهرة سنة ١٣٨٨ هـ سنة ١٩٦٨ م صـ ٣٠

٢٥- د. شوقى المعاملى . السيرة الذاتية فى التراث . دار النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٨٩ م صـ ٤٣ .

٢٦- انظر د. إحسان عباس فن السيرة صـ ٢٦ . وكذلك انظر: سيرة أحمد بن طولون ، لأبى محمد عبد الله بن محمد المدينى البلوى ط الهيئة العامة لقصور الثقافة:مصر:تحقيق محمد كرد على سنة ١٩٩٩، وانظر صـ ١٨ على سبيل المثال.

٢٧- السابق نفسه صـ ٢٩ .

٢٨- انظر السابق نفسه والصفحة نفسها .

٢٩- السيرة الذاتية فى التراث صـ ٥٤ .

٣٠- انظر ليون إيدل . فن السيرة الأدبية ترجمة صدقى خطاب ط ١٩٨٨ دار العودة بيروت من صـ ١٩٨ : ٢٠٩.

٣١- السابق نفسه والصفحات نفسها .

٣٢- انظر د. إحسان عباس فن السيرة ط ٦ سنة ١٩٩٢ صـ ٥٨ ، ٥٩ .

٣٣- انظر إحسان عباس . فن السيرة صـ ٥٦ ، ٥٧ .

٣٤- انظر السابق نفسه أيضا صـ ٦٤ ، ٦٥ .

٣٥- إحسان عباس فن السيرة صـ ٩٤ .

٣٦- السابق نفسه صـ ٩٧ .

٣٧- السابق نفسه صـ ١٢٨ وما بعدها .

٣٨- السابق نفسه صـ ١١١ .

الفصل الثانى

الملامح الفنية للسيرة الذاتية عند الشيخ محمد عبده
(سنة ١٨٤٩ م : ١٩٠٥ م)

برغم أن ما كتبه الشيخ محمد عبده خاصاً بسيرته الذاتية لا يتجاوز ثلاثين صفحة في الأعمال الكاملة له جـ٢ ، لكن هذه الصفحات يدعمها ويتصل بها ما جُمِع له في هذه الأعمال الكاملة بأجزائها الخمسة لارتباطها بها ، بل إنني أتصور أن جميع ما كتبه محمد عبده من مقالات ورسائل وشعر لا يفهم على وجهه الصحيح إلا بعد قراءة وفهم هذه السيرة الذاتية له ، لأنها توضح العوامل الفاعلة في هذه الشخصية ، كما تضئ تحولاتها ، هذا بالإضافة إلى التكامل الموضوعى بين هذه الفنون في أدب الشيخ .

وقد كتب ما كتب فيها على مرحلتين إحداهما في منتصف حياته تقريبا، والأخرى قبل نهايتها كما سيتضح ، لكن العوامل الفاعلة متجلية متصلة متكاملة فيما كتب في هاتين المرحلتين .

وكم كنت أتمني أن تتصدر هذه السيرة الأعمال الكاملة التي جمعها وحققها ، وبذل فيها جهداً عظيما د. محمد عمارة ، جزاه الله كل خير.

هذا برغم أن الشيخ محمد عبده لم يسجل سيرته كلها ، فالمدة التي تمتد من تخرجه في الأزهر إلى وفاته ، لم يسجل منها في سيرته إلا نتفاً قليلة جداً كحديثه عن امتحان تخرجه في الأزهر[١] ، وتعلمه اللغة الفرنسية [٢] ، وحديثه عن الحوادث العرابية [٣] ، ومن ثم فلا تتضح معظم أفعاله ومواقفه في هذه الفترة الخصبة من حياته ، وتأثيره فيمن حوله إلا بمتابعة مقالاته ورسائله ، وما كتبه مريدوه والمتصلون به ، كسعد زغلول، وقاسم أمين ، وإبراهيم الهلباوي ، وحسن عاصم وحفني ناصف

وعلى فخري ، ومحمود سامي البارودي ، ومحمد فريد ، و حافظ إبراهيم وكثيرون غيرهم ، وهي نماذج " ليس لها نظراء في تارخ مصر " [٤]

وقد تحققت في سيرته كثير من المقومات الفنية التي أجمع عليها نقاد الأدب ودارسوه منها : التوفيق بين المثال والواقع ، والخاص والعام ، والتوازن بين الروح الروائية القصصية والحقائق التاريخية ، وتحقق القدوة والفاعليه والفائدة ، فإذا ما تحققت هذه الملامح والخصائص مرتبطة بقيم الإسلام ومبادئه تجلى الشيخ محمد عبده أديبا إسلاميا متميزا ذا أسلوب خاص ، ولذلك كان يجب أن تعقد هذه الندوة [٥] منذ مدة طويلة في رابطة الأدب الإسلامي للكشف عن جانب متميز في هذه الشخصية – وما أكثر جوانبها المتميزة – وهو تمثيله للأدب الإسلامي خير تمثيل .

ومن أهم خصائص سيرته الذاتية:-

أولا التوفيق بين المثال والواقع والخاص والعام :

يبدأ الشيخ محمد عبده مقدمة سيرته بحمد الله ، والصلاة والسلام على خاتم رسله ، وقد تتشابه هذه المقدمة [٦] في بعض الأمور مع غيرها لدى كتاب ومصلحين آخرين ، فهي قد تشبه منطقيا ومنهجيا " مقدمة " الخطبة بصفة عامة ، من حيث إشارتها إلى الموضوع : الذي سيتناوله الحديث ، لكنها بعد ذلك وقبله تتفرد شكلا وموضوعاً في كثير من الأمور ، منها تشكيل الأفكار التي تتضمنها.....، جدة في الموضوع ، وقوة في الإقناع ، وأناقة في العرض ، وثراء في الإيقاع ، وتحقيق للأصول الفنية والموضوعية للسيرة الذاتية ، وهو ما يلفت النظر هنا.

وبرغم أن الشيخ محمد عبده من رواد الإصلاح والنهضة ، ومن زعماء التنوير والتحديث ، لكنه غاية في التواضع بالنسبة لكتابة سيرته ، إذ يرى – هو نفسه – أنه ليس أهلا لذلك ، فلم يأت عملاً يذكر ، وليس له أثر يؤثر ، وأنه ليس قدوة ولا أسوة ، بل هو عاجز – كما يزعم – عن تحقيق طموحاته ، وأن أي وقت يصرفه في كتابة سيرته ، أجدر بأن يصرفه في حكمة يستفيدها ، وهذا الرأي منه في نظري عمل بقوله تعالى : [ولا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى] [٧] ، وكما نصح بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو بذلك لا يقدم نفسه بصورة مثالية تتجاوز الواقع ، وإنما يعتد به ، كما لا يغلب الخاص على العام ، وإنما يحاول أن يوفق بينهما ، بما يجعل سيرته جديرة بأن تكتب ، كما أنها جديرة بأن تقرأ ويستفاد منها [٨] .

وقد دفعه إلى كتابة سيرته رجلان : أحدهما : الكاتب الإنجليزي ويلفور بلنت ، أحد الذين ناصروا القضية المصرية ضد الاحتلال الانجليزي ودافعوا عن العرابيين[٩] ، فقد استهواه حديث الشيخ في بعض قضايا الأمم ، بل لقد تمنى ويلفور ومن معه رؤية هذه الآراء في سيرة الشيخ بلغتهم الإنجليزية ، وقد أخذوا يحثونه على ذلك.

أما ثاني هذين الرجلين فهو الشيخ محمد رشيد رضا الذي حاول إقناع الشيخ محمد عبده بكتابة سيرته الذاتية ، وأنها إن لم تنفع معاصريه فستنفع من يأتي بعدهم [١٠] .

ونظرا لأن كلا الرجلين أهل ثقة لدى الشيخ محمد عبده ، فقد أعاد هو نفسه النظر في مواقفه وأحواله ، وانتهى إلى كتابة ما كتب ، راجيا أن يكون فيه الفائدة ، وهو بذلك يحقق هدفا قيما من أهداف كتابة السيرة ألا وهو تحقيق المنفعة والقدوة ، خاصة وأن الشيخ كان ذا فاعلية فيمن حوله ، ومن يتصلون به ،

مما جعله [١١] يتبنى أهدافا عظيمة ينيط بها تغيير حال الأمة ، وسعيها نحو التقدم والرقي ، واستعادة نهضتها ، لذلك فقد كان من أهم أهداف هذه السيرة ما دعا إليه الشيخ ، وحاول أن يترسمه في حياته ، وبه كان قدوة ؛ من هذه الأهداف:

١- تحرير الفكر من قيد التقليد ، وفهم الدين على طريقة – سلف الأمة قبل ظهور الخلاف .
٢- إصلاح أساليب اللغة العربية في التحرير في جميع المجالات الرسمية والمترجمات ، والصحف والأدب وغيرها .
٣- التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب ، وما للشعب من حق العدالة على الحكومة [١٢] .

وهي أهداف عظيمة تجلت في كل أعمال الشيخ وممارساته ، واتصالاته وسعيه في مصر وخارجها ، وسواء كان منفياً بعيداً عن مصر ، أو مؤدياً مهامه في التعليم والقضاء والجمعيات المدنية ، والاشراف على تحرير الوقائع المصرية وإصدار مجلة العروة الوثقى ، وغير ذلك من المجالات التي قاد فيها الشيخ حياة الناس نحو الخير والنهضة والتقدم .

ويقترن بكل ما سبق تجلي الجانب الأدبي الفني الذى يتجاوز دفاعه عن اللغة العربية ، وتحريرها من قيود الصنعه والتكلف ، وأثقال البديع الزائف ، والركاكة والابتذال [١٣] ، ليضرب بسهم وافر في فنون الأدب المختلفة الخطبة والسيرة والمقالة والرسالة والشعر ، موظفا لها فيما يدعو إليه من تحرير ونهضة وتقدم ، مسترشدا بكتاب الله الكريم وهدي رسوله صلى الله عليه وسلم ، وما كان عليه السلف الصالح ، دون أن يهمل أثر المتغيرات في الواقع المعيش .

تأمل حديثه عن هذه الأهداف وجهره بها متحديا كل ظلم ، داعيا الأمة إليها متخذا من الأسلوب الفني وسيلته للدعوة والتأثير ، والكشف والحث على التغيير ، معترفا بصوابه وخطئه ، ونجاحه وفشله ، دون أن يلبس نفسه مثالية لا تتحقق ، أو خصوصية ليست منطقية : يقول : " جهرنا بهذا القول والاستبداد في عنفوانه ، والظلم قابض على صولجانه ، ويد الظلم من حديد ، والناس كلهم عبيد له أي عبيد.

نعم ... إنني في كل ذلك لم أكن الإمام المتبع ، ولا الرئيس المطاع ، غير أني كنت روح الدعوة ، وهي لا تزال بي في كثير مما ذكرت قائمة ، ولا أبرح أدعو إلى عقيدتي في الدين ، وأطالب بإتمام الإصلاح في اللغة ، وقد قارب . أما أمر الحكومة والمحكوم فتركته للقدر يقدره ، وليد الله بعد ذلك تدبره ، لأنني قد عرفت أنه ثمرة تجنيها الأمم من غراس تغرسه وتقوم على تنميته السنين الطوال ، فهذا الغراس هو الذي ينبغي أن يعنى به الآن والله المستعان .

أصبت نجاحاً في كثير مما عنيت به ، وأخفقت في كثير مما وجهت عزيمتي إليه ، ولكل ذلك أسباب بعضها مما غُرز في طبعي ، وشئ منها مما احتف حولي ، وطائفة منها من أصالتي في الرأي أو خطئي ، ومن الذى يستطيع أن يُفصّل ذلك غيري ، حتي يكون إن شاء الله ، عبرة لمن يأتي من بعدي .

لهذا رأيت أن أكتب ما لاقيت ، وأثبت ما صادفت من لدن عقلت ، منبهاً على ما فيَّ من معايب ، وعلى إحسان الله إليَّ في بعض المزايا ، وعلى علل الحوادث التي مررت بها أو مرت بي في أطوار حياتي . غير أنني أبدأ بكلام قليل فيما يتعلق بما في بيتي وهو ما لا أعرفه إلا بالسماع من أهله كما لا يخفي " [١٤] .

وهنا يتسق مع الدعوة إلى الإصلاح والجهر بها " إسمية الجملة " التي تفيد الثبوت ، وهي منتشرة في الفقرتين الأولى

والثانية في هذا النص السابق ، ليتقرر في نفس المتلقي وعقله ما يبتغيه الشيخ من دعوته ، كما أنها " جمل قصيرة متتابعة متوازنة " ليتحقق التأثير بالفكرة في الوجدان ، ويتآزر مع ما سبق عدة صور بيانية مردها إلى قوة الخيال ، وحركية الصورة ، وتنوعها حسيا : الاستبداد فى عنفوانه ، .. الظلم قابض على صولجانه ، .. يد الظلم .. ، كنت روح الدعوة .. ، ثمرة من غراس تغرسه .. ، احتف حولى .. ، ويدعم كل ما سبق كثير من " جناسات الاشتقاق " كما في : الحكومة والمحكوم ، والقدر يقدره ، وغراس تغرسه ، ومما يثري الإيقاع والتأثير به بصفه عامة أن تتجلى الأفكار في كلمات متوازنة مثل: عنفوان – صولجان ، حديد – عبيد ، يقدره – تدبره ، أصبحت – أخفقت ، أصالتي – خطلي ، لاقيت – صادفت ، وبعض هذه الكلمات المتوازنة قد تتضمن تقابلات كاشفة ، أو ترادفات مؤكدة ...

ولا يأتي ما سبق إلا في سياق روائي قصصي تتجلى فيه شخصية الراوي وهو يعرض التاريخ .

ثانيا: التوازن بين الروح الروائية القصصية والحوادث التاريخية:

السيرة الذاتية فن أدبي يتجلى فيه امتزاج التاريخ بالفن ، فلا تطغى الروح الروائية بخيالها على حوادث التاريخ ووقائعه ، كما لا تُخفي هذه الحوادث والوقائع التاريخية الروح الفنية ، فاذا وفق الكاتب في تحقيق هذا التوازن ، كانت السيرة محققة لأكثر غاياتها الفنية والإنسانية .

وأول ما يتحقق ويبدو جليا في سيرة الشيخ محمد عبده هو الاتصال التاريخي ، وتكامله ، ولقد كانت المرحلة الأولى تمثل نشأته وتعليمه في " محلة نصر " مسقط رأسه ، حيث حفظ القرآن الكريم ، وجوّده عند أحد الحفاظ ، وقد كان محمد عبده

متميزاً ، ثم في طنطا حيث المسجد الأحمدي مكانا للتعلم ، وقد نفر من الطريقة التلقينية التي يردد فيها المعلم والمتعلم مصطلحات في النحو والفقة وغيرهما دون فهم ، ودون رعاية للمتعلم واستعداده ، ثم في " كنيسة أورين " حيث التقى بخال والده الشيخ درويش خضر الذي بفضل توجيهه وإرشاده وتعليمه له، كانت النقلة المهمة من حياة اللعب إلى حياة العلم والتصوف.

وقد ظل تأثير الشيخ درويش فيه ، وتوجيهه له ، ملازما له حتى عندما انتقل إلى القاهرة .

وفى القاهرة وهى المرحلة الثانية التي سجلها في سيرته – عندما طلب منه ذلك الشيخ محمد رشيد رضا – يواصل الشيخ محمد عبده دراسته بالجامع الأزهر ، وقد كان يلتقي أيضا بالشيخ درويش في شهري الصيف العطلة الدراسية في " محلة نصر" ، فيما يشبه المراجعة لما درس وما فعل خلال العام الدراسي ، وذلك كان أشبه ما يكون بالتقييم والتقويم لحياة الشيخ محمد عبده خلال عام دراسي ، حتى عندما التقى بجمال الدين الأفغاني الذي وجد لديه كثيرا مما كان يبحث عنه من علوم ومعارف كان الشيخ درويش ينصحه بطلبها ، والتماسها حيث تكون كعلوم المنطق والرياضيات وغيرها ، وهكذا توطدت صلته بجمال الدين الأفغاني عندما زار مصر للمرة الثانية ومكث بها من سنة ١٨٧١ م : سنة ١٨٧٩ م وهو الذى قال فى جمال الدين الأفغانى " إن أبي وهبني حياة يشاركني فيها " على و محروس " والسيد جمال الدين وهبني حياة أشارك فيها محمد وابراهيم وموسي وعيسي والأولياء والقديسين" (١٥)

وقد كانت هذه الصلة مثمرة بالإضافة إلى ما سبق ، أيما إثمار ، فأتيح لمحمد عبده أوسع مجال ليمارس العمل الدعوي ، الإسلامي والإنساني والوطني ، وتتجلي موهبته في تحرير " مجلة العروة الوثقى " التي دعاه إليها جمال الدين الأفغاني في

باريس ، و" الوقائع المصرية " فى مصر حفاظا على اللغة العربية وآدابها ، كما تبرز مبادئه جلية فيما يكتب ، وتكون " العروة الوثقى " البوتقة التي انصهرت فيها توجهاته الوطنية ، وقيم العدل والحرية والدفاع عن الإسلام والمسلمين وتحرير مصر من الظلم والظالمين .. ، إلى غير هذه القيم التي روّاها بجهوده واستمرت شعلتها مضيئة في مختلف مجالات الحياة العملية التى مارسها ، مدرسا بالأزهر، ثم قاضيا، ثم مفتيا، ومحررا للوقائع المصرية ، ومثريا لنشاط الجمعية الخيرية الإسلامية ، وغير ذلك مما مارسه الشيخ محمد عبده من جهود إنسانية نهضوية .

التحليل التاريخي:

ولا يتمثل الجانب التاريخي في أحداث السيرة الخاصة به وما بينها من ارتباطات زمنية ، وإنما نجده يعنى بالتحليل التاريخي لبعض الأحداث أو القضايا التي تشكل وقائع السيرة ، عندما يشوبها اللبس ، فبعد أن يذكر نسب والده بتفصيلاته ، التى عرفها بنفسه يأتي إلى ذكر نسب بيت والدته فيقول " ..يقال إنه عربي قرشي يتصل في النسب بعمر بن الخطاب رضي الله عنه .... " (١٦) ، ويعلق الشيخ على ذلك قائلا : " لكن ذلك كله روايات متوارثة لا يمكن إقامة الدليل عليها.." (١٧) .

هنا نجده يعرض لفكرة الأنساب في الإسلام ، ويبين أسباب ضياع هذه الأنساب ، فيوضح أن الإسلام جاء والعرب أشد محافظة على أنسابهم ، بل كانوا يبالغون في الاعتزاز بالأنساب وشرفها ، لدرجة تفضيلها على ما يحققه ذو الأدب والمكانه بأدبه ونفسه ، لكن الشيخ يرى ذلك بخسا للحق واستهانة بالكرم الذاتي والشرف العصامي.

وقد يكون في الاعتزاز بالأنساب حثًا للاحقين على الاقتداء بالسابقين ، وحفظ ما ورّثهم الأجداد من كريم الخصال والرفعة ، لكن الكسل في الإنسان كان يغلب جانب الاتكال على الأحساب على جانب الأسوة ، ولذلك أنكر الإسلام الإفراط والغلو في اعتبار الأنساب . وجعل الأكرم عند الله الأتقى ، والرسول صلى الله عليه وسلم ، يعول على الأعمال لا الأنساب ، فليس النسب وحده مناط الفخر ، رفعة وخفضا ، وإنما ما يقدمه الإنسان من أعمال عظيمة وأخلاق كريمة ، فإن اجتمع مع ذلك النسب الرفيع فبها ونعم [١٨] .

وفي الوقت نفسه يبين الشيخ أن الإسلام يهتم برعاية النسب إلى الآباء ونفي ما كان عند الجاهليين من عادة التبني والأدعياء ، وجعله النسبة الحقيقية للآباء أقرب إلى التقوى ، وهكذا لم يهمل الإسلام شأن النسب ، ولم يضع من شأن الأدب المكتسب ، وذلك ما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته .

ويعزو الشيخ ما أصاب المسلمين من إهمال للنسب نتيجة ما حققه بعض الموالي من مكانة ... في الدولة العباسية ، بينما هم قد يكونون غير معروفي النسب ، بل لقد استبد بعض هؤلاء الموالي بالخلفاء ومن نسل العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه ، واغتصبوا الملك منهم ، وسادوا على كل نسب ، " فسقطت بذلك منزلة النسب في نفوس المسلمين ، وعاندوا سنة من أعظم سنن الله في خلقه ، وهي سنة توارث الأخلاق والغرائز ، وأن ما يكون في الآباء من أصول الملكات يهيئ الأبناء لكسب مثلها وما جاء مخالفا لذلك فهو من مبتدعات القدرة الإلهية " [١٩] .

ثم يستكمل جوانب الفكر بالإشارة إلي دور التربية ، فإذا توفر الاستعداد الطيب ، وكانت التربية حسنة أسرعت بتكوين

الملكة الصالحة في النفس المستعدة ، وإن كانت التربية رديئة أماتت الاستعداد وكونت الملكات الخبيثة حتي تفسد نفس الناشئ.

وينتقل الشيخ ليبين أن المسلمين أهملوا سنة النسب الصالح في أنفسهم، واهتموا بها في خيولهم وماشيتهم وحميرهم ؛ فيطلبون نتاج الجياد من الجياد، لكنهم لا يطلبون البنين من أم البنين، بل ولعوا بالجواري والإماء ممن لا تعرف أصولهم، وأكثر ما يكون ذلك في بيوت الخلفاء ومن يليهم من علية الناس.

وهكذا كان خيراً للابن أن ينسي خؤولته بعد أن كان يفتخر بها ، وحرص الملوك على المماليك وظنوا فيهم الإخلاص ، وسودوهم على من سواهم ، ولم يكن لهؤلاء العبيد أن يذكر لهم آباء ، أو يتذكر لهم نسب فصار الجهل بالأنساب عادة ، وبئست العادة ، وهكذا نسيت البيوت أسلافها .

وهكذا يثبت الشيخ أن عادة نسيان الإنساب قديمة ، ويسوغ بذلك أن ما سمعه عن بيت والده أو والدته إنما هو روايات نقلها له الأهل والأقارب ، ولذلك فهي تحتمل الصحة وعدمها ، وربما تكون من أجل التَّزَيُّد في الفضل ، فليس هنالك دليل قوي يثبت ذلك ، لكن هذا التزيد لا يكون في أصله التركماني ، وإنما في الانتساب إلى قريش وعمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي روي له بالنسبة لوالدته ، وقد ترجحت صحة هذا الخبر لديه ، ويؤيده في ذلك ما يراه في أهل بيته من بعض الخصال التي لا يشاركهم فيها من يجاورهم من الناس . (٢٠)

وهنا ينتهي ما كتبه الإمام من سيرته بناء على طلب الكاتب الإنجليزي بلنت .

وفي كل ما سبق يتحقق الاتصال التاريخي خلال التتابع الزمني للأحداث ، لكن لا يتم بطريقة مباشرة ، وإنما بصياغة أدبية متميزة تحقق ثراء الفكر ومتعة الوجدان ، وبها يتجلى بعض مظاهر الجوانب الفنية التي يتضح خلالها الاتصال

التاريخي ممتزجاً بوجدانه ومشاعره ، فيتحقق للسيرة التوازن بين التاريخ والفن ، وها هو ذا يتحدث مثلا عن أثر الشيخ درويش خضر عندما التقي به في " كُنَيِّسة أورين " .

وقد أخذ طريق المعرفة يتكامل في نفس الشيخ محمد عبده بعد سؤاله للشيخ درويش عن طريقته الصوفية وأوراده في الخلوات وعقب الصلوات ، فعرف منه أنه لا شئ غير الإسلام والقرآن ، كما عرَّفه كيف يذكر الله ، وأنه يكفيه أن يفهم الجملة في القرآن ، وببركتها يفيض الله بالتفصيل ، وقد أخذ الشيخ محمد عبده يعمل بما بينه له الشيخ درويش منذ اليوم الثامن ، فامتلأت نفسه بنور الله ، ويصف الشيخ محمد عبده ، هذا التغيير الذي أصابه بقوله : ... " فلم تمض عليّ بضعة أيام إلا وقد رأيتني أطير بنفسي في عالم آخر غير الذي كنت أعيشه ، واتسع لي ما كان ضيقاً ، وصغر عندي من الدنيا ما كان كبيرا ، وعظم عندى من أمر العرفان والنزوع بالنفس إلى جانب القدس ما كان صغيراً ، وتفرقت عني جميع الهموم ، ولم يبق لي إلا هم واحد ، هو أن أكون كامل المعرفة ، كامل أدب النفس، ولم أجد إماما يرشدني إلى ما وجهت إليه نفسي إلا ذلك الشيخ الذي أخرجني في بضعة أيام من سجن الجهل إلى فضاء المعرفة ، ومن قيود التقليد إلى إطلاق التوحيد ، هذا هو الأثر الذي وجدته في نفسي ، من صحبة أحد أقاربي وهو الشيخ " درويش خضر" من أهل كُنَيِّسة أورين " من مديرية البحيرة ، وهو مفتاح سعادتي ، إن كانت لي سعادة في هذه الحياة الدنيا ، وهو الذي رد لي ما كان غاب من غريزتي ، وكشف لي مما كان خفي عني ما أودع في فطرتى" (٢١) .

وفي هذه الفقرة كغيرها من كل سيرته ، يمتزج فيها التاريخ بالفن ، فتتابع الأحداث تتابعها الزمني التاريخي ، لكنها تفيض بمشاعره ، ويصوغها وجدانه صياغة فنية مشرقة آسرة

مؤثرة ، تشكلها محاور فنية نألفها كثيرا في أسلوب الشيخ محمد عبده منها : " التقابل " هنا كما في الاتساع والضيق ، والصغر والكبر ، والعظم والصغر ، وسجن الجهل وفضاء المعرفة ، وقيود التقليد وإطلاق التوحيد ، والرد والغياب ، والكشف والخفاء ... ، كما نجد محورا آخر يتآزر مع" التقابل " هو " التماثل " كما في : العرفان ، والقدس ، وكمال المعرفة ، وآداب النفس ، والإمام والإرشاد ، ومفتاح السعادة..، وهذان المحوران في صور تتآزر مجلية التحول الذي أصاب حياة الشيخ محمد عبده ، فنقلها هذه النقلة الهائلة التى توضحها الصور التى تجلت فى أسلوبه مثل من سجن الجهل إلى فضاء المعرفة والعلم ، ومن قيود التقليد إلى إطلاق التوحيد ، .. مفتاح سعادتى ، .. وغير ذلك مما كان له أكبر الآثر في حياته منذ هذا التحول إلى نهايتها ، وهي حياة حافلة بالأحداث والمواقف التي شكلت تاريخه ، وهكذا يتحقق للسيرة عنصران مهمان ممتزجان هما الروح القصصية والحوادث التاريخية مع نزعة التصوف والزهد لديه .

ثالثا: الفاعلية والقدوة:

يبدو أن الشيخ محمد عبده كان يتمتع بفاعلية قوية ، تتجلي مظاهرها فيمن حوله عندما يلتقيهم ، فعندما ضاق بطريقة التعليم في طنطا تلك الطريقة التقليدية التلقينية التي لا تراعى المتعلم ودرجة استعداده ، فر راجعا إلى بلدة " كُفَيْسة أورين " ، حيث فرح به شبابها لممارسته اللعب والسباحة وركوب الخيل معهم ، وتميزه فيها ، لكنه سريعا ما انصرف عن ذلك إلى كتاب التصوف الذي عرضه عليه خال أبيه الشيخ درويش خضر ، وظل معه حتى أصبحت القراءة أحب شئ إلى نفسه ، وصار اللعب أبغض شئ إليها .

وعندما رجع إلى طنطا لتلقي العلم في المرة الثانيـــة ، أدرك أنه يفهم ويعي ويستجيب ، ويقبل على العلم ، وكان محمد عبـــده هو الذي يتجمع حوله الرفاق ، من أجل أن يطالع معهـــم قبـــل الدروس ما سيتلقونه من شيوخهم ، وذلك لما لمسوه فيـــه مـــن مقدرة وحسن فهم ، وقدوة حسنة.

لكنه عندما ذهب إلى القاهرة فـــي الجـــامع الأزهـــر ، وعكف على طلب العلم ، كان يروض نفـــسه علـــى المكـــاره ، وقهرها بالصوم تارة ، ولبس الخشن والتعرض لانتقـــاد النـــاس تارة أخري ، وكان في عزلة ، اللهم إلا إذا كان هنـــاك مجلـــس علم ، أو التماس المعرفة ، لكن الشيخ درويش لفت نظرة إلـــى أن العزلة سلوك لا يليق بمن يريد أن ينفع بما تعلم ، وبرغم أن محمد عبده أعرب عن ضيقه ببعد الناس عن الحق ، وزهده في معاشرتهم وتوجيههم ، لكنه أخذ يستصحبه في مجالس العامـــة ، وينتهز فرصة الكلام في الشؤن المختلفة ، ليوجه إليه الخطـــاب ليتكلم ويجيب على الحاضرين ، وما يزال به حتى تأكد ما لديـــه ، من أجل ذلك فإن الشيخ درويش قد حثه على الاتصال بهـــم ، و الألفة مع الناس ، والاستئناس بمكـــالمتهم ، والتـــأثير فـــيهم ، وإقناعهم ، وإقبالهم عليه.

وقد تجلت هذه الفاعلية والقدوة بصور أوضح وأجلى في المواقع التي قام بها الشيخ محمد عبده ... مدرساً بالجامع الأزهر للعلـــوم الكلامية والمنطقية ، ثم قاضيا في المحاكم الابتدائية والاستئناف ، ومفتيا لمصر ، وفي إنشاء الجمعية الخيرية الإسلامية وأنـــشطتها الكثيرة المتنوعة في مختلف مجالات الحياة ، ومع كل ذلك إشرافه على تحرير " الوقائع المصرية " ، و" مجلة العـــروة الـــوثقى " ، وفي كل مجال من هذه المجالات في مصر وخارجها كانت تتجلى عبقريته في الفكر وتوجيه الأمة وقيادتها نحو التقدم والازدهـــار ، اعتماداً على الدين الإسلامي في انقي صـــوره ، وبلغـــة جميلـــة

مشرقة في أبهي أشكالها ، ليرقي بالفكر ويمتع الوجدان ، ويحقق الفاعلية والقدوة في أجلي مظاهرها ، بل إن شهادة الشيخ محمد رشيد رضا وهو يصف الشيخ محمد عبده بعد وفاته بربع قرن لتجلي مثالية هذا الرجل إذ يقول فيه إنه : (... الحقيق بلقب المثل الأعلى من ورثة الانبياء في هذا العصر) [٢٢] .

بل إن المستشار عبد الحليم الجندى ، ليسجل له في كتابه عنه نماذج فريدة في أحكام القضاء والفتيا ، والسلوك الفريد ، وغير ذلك مما يؤكد الاجتهاد القويم وبعد نظره في أمور الحياة المختلفة [٢٣] ، ويدعم ذلك ويؤكده ما جمعه د. محمد عمارة في الأعمال الكاملة للشيخ محمد عبده خاصة ج ٢ الملحق الخاص بالفتاوي من ص ٤٨١ : ٧٠١

أهمية تعلم اللغة الأجنبية :

يرى الشيخ محمد عبده أن التعليم بصفة عامة ركيزة أساسية في حياة الأمة ، وهو ذلك الغراس الذي تتعهده الأمة في أبنائها لتحقق التقدم والازدهار وينصلح أمر الحكومة والمحكوم [٢٤] .

كما نجد الشيخ يهتم بتعلم اللغة الفرنسية ، وقد بدأ هو نفسه في أثناء الحوادث العرابية ، ثم انصرف عن ذلك بعد تعلم الهجاء ، لكنه يعود إلى تعلمها في الرابعة والأربعين ، وقد اشتدت حاجته إلى ذلك بعد عودته من المنفى وعمل بالقضاء في المحاكم الأهلية ، وخاصة في الجنايات ، وفيها يتم التعامل على أصول القوانين الفرنسية ، وكان يجلس بين قضاة يغلب عليهم العلم بتلك القوانين في لغتها.

ويبين لنا الطريقة التي حصل بها هذه الغاية ... ، فقد أخذا يقرأ قصة لألكسندر توماس مع أستاذ يعلمه ...، والشيخ يقرأ والأستاذ يصوب له النطق ويفسر له الكلمة ، هكذا قرأ عدة كتب ، كما كان يقرأ بصوت مرتفع كلما وجد البيت خاليا ، وقد حصل من

ذلك ما كان يمكن له من القراءة والفهم دون أن يتكلم بطلاقة ، وهي الطريقة نفسها التي تعلم بها طه حسين اللغة الفرنسية بعد ذلك [٢٥] .

من ثم كان طبيعيا أن يستكمل الشيخ محمد عبده ذلك في سفراته إلى فرنسا وسويسرا في أيام العطلة الصيفية ... ، وهكذا استطاع أن يحقق ما يريد من أجل القضاء ، ومن أجل التعامل مع الغرب الذي تشتبك معه مصالح الشرق [٢٦] .

ونلاحظ أن الطريقة التي تعلم بها الفرنسية من أجود الطرق في تعلم اللغات الأجنبية لأنها تعتمد على الممارسة الذاتية والفاعلية الشخصية ، والاحتكاك المباشر بنصوص اللغة الأجنبية التي يريد أن يتعلمها ، وهي هنا اللغة الفرنسية ، بالإضافة إلى التدرج في التعلم هجاء ونطقا وقراءة وفهما وطلاقة .

ومن قبل كل ذلك خروجه على البيئة التى تعلم فيها ، وتطلعه إلى تعلم اللغة الفرنسية ، ليتصل بالحياة من أوسع أبوابها ، في الداخل والخارج ، وهو بذلك يقدم القدوة الصالحة لمن شاء أن يستفيد .

ولا ينقص أحداث هذه السيرة الذاتية تحقق متعة التسلية ومواجهة الأحداث ، خلال متابعة حياة الشيخ محمد عبده في " محلة نصر" وطنطا والقاهرة وفرنسا وسويسرا ولندن وغيرها.

" الأيام " لطه حسين (١٨٨٩ م : ١٩٧٣ م)
بين الذاتية والموضوعية

مدخل :-

أملى طه حسين " الأيام " فى ثلاثة أجـزاء ، لكننـى أعتقـد أن الجزء الثالث ربما يكون أكشفها عن فاعليته ، حيث تجلى فيـه كونه نموذجا متميزا فى القدوة وهو يجتاز صـعوبات حياتـه ، ويواجه مشكلاتها ، حقيقة ربما كانت الأجزاء الثلاثـة جميعهـا كاشفة عن ذلك ، لكن ما واجهه طه حـسين مـن مـصاعب وعقبات اجتازها فى القسم الثالث من " الأيـام " أكثـر اتـصالا بفاعليته ، كما أنها المرحلة الأخيرة التى انطلق منها إلـى أهـم المراكز العلمية والأدبية والفكرية التـى هيأتـه ليتبـوأ أرقـى الدرجات وأرفع المناصب : أستاذا بالجامعة ، ثم مديرا لها ، ثم وزيرا ،ورئيسا لتحرير جريدة الجمهورية ، وغيـر ذلـك مـن المناصب التى أتاحت له مجالات فسيحة متعددة ليـؤثر فـيمن حوله ، مجتمعا وأمة تأثيرا واسعا كبيرا ، خاصـة وقـد قطـع شوطا كبيرا فى دراسة التـاريخ ومقارنـة اللغـات ، واتـصل بالتراث والغرب اتصالا وثيقا .

ثم فى هذا الجزء الثالث نجد كثيرا من الإشارات لبعض ما ورد من أحداث حياته فى الجزئين الأول والثانى كحديثه عن زوجته وفضلها عليه ، وابنته ولقد كان حديثه عن فلسفة العمـى فى هذا الجزء الثالث حديثا شيقا تجلى فيه تصويره لهذه الحالـة تصويرا فنيا راقيا يمتع ويؤثر ويفيد .

" الأيام " الجزء الثالث (٢٧)

يتألف هذا الكتيب من تعريف بطه حسين ، ثـم تـسعة فصول تبدأ بدراسته فى " الجامعة المصرية " التى كانت تـسمى

حينئذ " الجامعة الأهلية " ، وذلك بعد أن درس فـــى الأزهـــر ، وتنتهى هذه الفصول بعودته إلى فرنسا لاستكمال دراسته .

برغم أنه فى الجزء الثانى قد يحدث ابنته عن أشياء تعد فى الجزء الثالث زمنيا .

وفى التعريف به وهو ليس من إملاء طه حسين ، وإنما كتبه معدوا هذا الجزء بوزارة التربية والتعليم حيث يشيرون إلى أنه ولد بإحدى مركز مغاغة من محافظة المنيا ، بصعيد مصر ، وقد كف بصره صغيرا ، ودرس بالكتاب ، وحفظ القرآن الكريم فى سن مبكرة ، ثم واصل تعليمه بالأزهر فـــى القـــاهرة فـــى صحبة أخ له أكبر منه .

ثم التحق بالجامعة المصرية القديمة (الأهلية) ، وكـــان متفوقا فى دراسته ، وقد حصل فيها علـــى أول درجـــة علميـــة للدكتوراه سنة ١٩١٤ م عن دراسته فى (أبى العلاء) .

وقد أرسلته الجامعة بعد ذلك إلى فرنسا ، حيث حـــصل على درجة الدكتوراه أيضا من جامعة السوربون . وذلـــك عـــن دراسته " فلسفة ابن خلدون الاجتماعية "

وبعد عودته عمل مدرسا بالجامعة المصرية ، وتدرج فـــى سلك الجامعة حتى أصبح عميدا لكلية الآداب ، ثم مديرا لجامعة الاسكندرية ، فمستشارا لوزارة المعارف ، ثم وزيرا لها ، وقـــد نادى بحق الشعب فى التعليم كحقه فى الماء والهواء ، وقد كثـــر نتاجة الفكرى والإبداعى ، كما لقب بعميد الأدب العربى .

وتحقق سيرة طه حسين كثيرا من أهـــم شـــروط بنـــاء السيرة وفنيتها التى أناطها بهـــا نقـــاد الأدب ومنهـــا : القـــدوة والفاعلية والإمتاع ، والتسلية وهى من أهم ملامـــح " الأيـــام " كسيرة ذاتية ، وقد تكون هذه الملامح خصائص عامة فى ســـير أخرى غير " الأيام " لكنها تكتسب خصوصيتها بتجليهـــا خـــلال أفعال طه حسين وأقواله :-

١ – القدوة ..... والفاعلية :-

أ- عقبات التعليم الجامعى : لقد واجه طه حسين العقبات بصبر ، وجلد ، ومثابرة وقوة تحمل ، سواء كانت هذه العقبات راجعة إلى ظروف حياته وملابساتها ، أو الجهات والمؤسسات التعليمية التى اتصل بها .

فقد كان كفيف البصر ، لكنه نجح وتفوق ، وربما كان ذلك عاملا مهما فى استمرار جلده وصبره وتحمله ، من ثم يمكن أن نعتبر جانبا من نجاحه وتفوقه رد فعل ليثبت للمبصرين جدارته ، وأنه يستطيع أن يأتى بما لم يأت به غيره منهم . وذلك منزع جدير بالقدوة والتأسى بصفة عامة ، كما يكشف عن فاعليته :- ومن أهم هذه الظروف والملابسات :-

١- اجتيازه الجامعة .. والدراسات العليا بها : فقد واصل تعليمه فى الأزهر ، ثم بالجامعة المصرية (الأهلية) متحديا كل العقبات ، وما أكثرها ، فقد حيل بينه وبين مرافقه الذى يقوده إلى الجامعة لسماع المحاضرات ، فلم يأذن له حارس باب قاعة الدرس ، وذلك لضيق المكان ، فاعتمد على أصدقائه ، حتى استطاع أن ينهى " دراسته بالجامعة ، ويحصل منها على أول دكتوراه فى سنة ١٩١٤ م فى " أبى العلاء المعرى " ، بتقدير جيد جدا ، كما اجتاز اختبار مادتين بدرجة فائق : هما الجغرافيا ، والروح الدينية عند الخوارج . وقد أشادت الصحف فى ذلك الوقت به وبرسالته التى فرح بها فرحا شديدا .

كما استطاع اجتياز عقبات البعثة إلى فرنسا ، وكان الشيخ عبد العزيز جاويش قد أثار هذه الفكرة فى نفسه ، وقد رفض طلبه عدة مرات ، إلى أن ربط المسؤلون عن الجامعة بين الموافقة على سفره فى البعثة ، وحصوله على الدكتوراه وإجادته اللغة الفرنسية وعندما تحقق هذان الشرطان سمح له بالسفر . (٢٨)

ب – تعلم اللغات الأجنبية :-

يقدم لنا طه حسين تجربة مفيدة حقا فى هـذا المجـال ، عمادها الاستماع ، فقد بدأ بدورة فى اللغة الفرنسية كـان فيهـا مستمعا لحديث أستاذه ، دون أن يشارك فى نطق أى حرف ، ثم كانت عناية هذا الأستاذ به عندما يلتقى به فى أوقات أخـرى ، يزيده معرفة بالفرنسية وأدبائها ، وقد تعدد معلموه فـشقى بهـم وأمتعوه ، أ شقوه بأجرهم ، وأمتعوه بتباين طـرائقهم وتنـوع إفادته منهم ، وفى ذلك ما فيه من توجيه فى تعلم اللغات اعتمادا على تنوع الطرائق ، وتباين الاستفادات ، وفى كل خير (٢٩) ، كما ساعده فى تعلم الفرنسية أيضا بدون أجر صـديقه محمـود سليمان خريج مدرسة الفرير ،وقد كان زميلا له فى الكتاب(٣٠) ، وكذلك ساعده أحد أصدقائه فى تعلم اللغات الـسامية خاصـة السوريانية ، التى تلقاها على أستاذه الألمانى لوتيمان الذى درس لهم المقارنة بين اللغة العربية واللغات الـسامية التـى علمهـم بعضها ، وقد كان هذا الدرس محببا إليه (٣١) ، ويفتح له آفاقـا جديدة فى العلم والمعرفة ، كما أصبح ذلك يشغله عن أى شـىء آخر مما يشغل غيره من الطلاب ، وفى ذلك ما فيه من القـدوة والفاعلية بالنسبة لغيره .

كما اعتمد على قارئته بفرنسا التى أحبها ، وربما كانت هى زوجته بعد ذلك ، فقد كانـت تقـرأ معـه لكبـار الأدبـاء الفرنسيين ، وكذلك أوليات اللغة اليونانية والرومانية ، وكل مـا سبق يؤكد أهمية السماع فى تعلم اللغات .

ولقد ضاق طه حسين بطريقة بريل التـى يـتعلم بهـا نظراؤه من المكفوفين ، لأنها لم تسعفه فى طلب العلم والمعرفة ، ولذلك عاد فاعتمد أكثر على السماع فى التحصيل والتلقـى ،

ج – أهمية الصداقة .. والأصدقاء :

للصداقة دور مهم فى حياة طه حسين برغم كف بصره ، فأصدقاؤه هم الذين ساعدوه فى دخوله قاعة المحاضرات أول الأمر فى الجامعة المصرية عندما منع حارس القاعة مرافقه من الدخول لضيق المكان وازدحامه بطالبى العلم والراغبين فيه .

وأصدقاؤه هم الذين عاونوه فى إنجاز رسالته للدكتوراه ، فقد أملاها على أحدهم ، وهو الذى كان يقرأ له شعر أبى العلاء ، وكان يتغنى به (٣٢) ، وقد قام آخر منهم بإعداد النسخ الخمس التى تقدم للجامعة ، وصديق ثالث رافقه فى سفره إلى الإسكندرية مع رئيس الديوان ، عندما دعى للقاء الخديوى بعد حصوله على الدكتوراه من الجامعة المصرية ، وهذا الصديق نفسه هو الذى أقرضه ستة جنيهات ليعد الملابس التى تليق بهذا اللقاء ، وهو أيضا الذى عاد معه إلى القاهرة .

وصديقه محمود سليمان هو الذى عاونه فى تعلم الفرنسية(٣٣) ، بدون أجر ، وصديقه الدارعمى هو الذى اهتم به فى رحلتهم إلى نابلى ثم إلى باريس عندما رجعا إلى البعثة بعد استدعاء الجامعة لبعثتها عندما واجهتها أزمة مالية ، وهذا الصديق هو الذى كان يتردد عليه فى الفندق فى فرنسا .

وقد يتصور أن ذلك يمكن أن يمس عصاميته ومقدرته وصموده ، لكن طه حسين يبين أن هؤلاء الأصدقاء ما أقبلوا عليه إلا لإعجابهم بمقدرته وصموده ، ونجاحه فيما يسعى فيه فقد كان مرجعا لهم فى حل مشاكلهم . ومن ثم فربما كان ذلك فى الوقت نفسه لون من ألوان فاعلية الشخصية فيمن حولها ، وتأثيرها فيهم ، ذلك التأثير الذى سيتسع كما وكيفا بعد أن هيأ طه حسين نفسه للعمل بالجامعة أستاذا ومديرا لها ، ثم مستشارا لوزارة المعارف ، ووزيرا لها ، ورئيسا لتحرير جريدة

الجمهورية ، وبعد أن كثر نتاجه الفكرى فى الأدب والنقد واللغة والسياسة والاجتماع ، حتى كان لقب عميد الأدب العربى إشارة ثرية إلى اتساع هذا الأثر وعمقه على مستوى المجتمع والأمة والحياة .

د – أساتذته وتلاميذه وزملاؤه :

يعتبر طه حسين فى مقدمة الرعيل الأول الذين درسوا على يد أساتذة مصريين وأجانب ، وهو يعترف بالفضل لهؤلاء و أولئك ، من ثم فقد بدأ بالحديث عن الأجانب مثل سانتيانا و ونيللينو ولوتيمان ، وهم من كبار المستشرقين الذين عنوا باللغة العربية وآدابها واللغات السامية ، وقد أجاد طه حسين السوريانية على يد لوتيمان ، وعندما ودعه تلاميذه وأثنوا عليه متحدثين باللغة العربية ، كان طه حسين الوحيد الذى خطب باللغة السوريانية ، مما أبهج أستاذه كثيرا ، كما سره أن يلقاه بعد ذلك مرتين ، أولاهما فى مؤتمر المستشرقين بليدن بهولندا ، حيث كان طه حسين يلقى بحثا شارك به فى هذا المؤتمر ، وكان لقاؤه الثانى به وهو يشترك معه فى تخريج السيدة سهير القلماوى ، تلميذة طه حسين ، والتى اعتبرها لوتيمان حفيدته ، لأنها تلميذة تلميذه (٣٤) .

وقد رافقه سانتيانا فى محاضرة بالأزهر ناقش فيها طه حسين الشيخ سليم شيخ الأزهر الذى كان يقدم درسا فى التفسير ، ثم التقى به بعد ذلك فى مكتبه ، فشجع فيه الطالب المحب للعلم والمعرفة وتنوعهما ، وكانت تلك المناقشات كاشفة عن شخصية علمية واعدة ، كما ظهرت بعد ذلك .

وقد انتقد طه حسين انصراف الطلبة المصريين عن محاضرة لنللينو الإيطالى عندما أعلنت إيطاليا الحرب على تركيا فى الحر ب العالمية الأولى [٣٥] ، مشيرا إلى أن ذلك كان درسا للطلبة ألا ينصرفوا عن العلم والعلماء .

ولقد كان من أساتذته المصريين حفنى ناصف الذى أشركه معه فى تحكيم مسابقة فى الشعر ، قاما معا بمراجعة إجابات المتسابقين فيها ، مما يكشف عن مكانة طه حسين عند أساتذته وتفوقه المبكر [٣٦] . وقد وصف طه حسين أستاذه حفنى ناصف بأنه " يخلط نفسه بطلابه كأنه واحد منهم " [٣٧] ، وهو بذلك يقدم صورة مشرقة فاعلة لأستاذ الجامعة الذى يغمر طلابه بالعلم والمعرفة والمودة والحب .

كما قارن طه حسين بين بعض أساتذته من المصريين ، وبعض أساتذته من الأجانب ، فانتقد بعض المصريين الذين يعتمدون على النقل المباشر عن القدماء [٣٨] ، وآثر طريقة بعض الأجانب فى تمحيص الأخبار التاريخية ونقدها ، وكان ذلك من أمارات سعة أفقه وتميزه وتطلعه ، وهو فى الوقت نفسه كان يزكى بعض أساتذته المصريين مثل اسماعيل رأفت الذى كان يدرس الجغرافيا والسياسة والاقتصاد ، وبرغم عبوس هذا الأستاذ لكن طه حسين يؤكد إعجابه بعلم هذا الأستاذ وأثره الذى لا يقل عن علم وأثر بعض أساتذته الأجانب الذين تلقى عليهم العلم فى فرنسا [٣٩] ، إن لم يكن يزيد ، وهذا وفاء وصدق وأمانة فى السيرة تكشف عن طه حسين الصادق الأمين الوفى ، واعتداده بأساتذته المصريين ، برغم أننا قد نجد من الطلبة المصريين ، بل ومن بعض كتاب السيرة ، من لم يتضح لديهم هذا التوجه .

وقد انتقد طه حسين فى رسالته للدكتوراه رأى أحد أساتذته ، وكان هذا الأستاذ من الممتحنين له فى رسالته ، وهو

الذى أبى أن يمنح الطالب درجة الامتياز التى تتطلب إجماع الممتحنين ، مما اضطر اللجنة أن تمنحه جيد جدا [٤٠] ، وربما كان هذا الأستاذ هو محمد المهدى .

ويبدو أنه كان يجل أستاذه لطفى السيد ، ويكن له كثيرا من الود والاحترام ، فهو الذى شجعه وهو ذاهب للقاء الأمير [٤١] ، كما يسر له موافقة شركة السياحة على سفره إل نابلى عندما تعذر سفره بسبب كف بصره .

ولم ينس طه حسين أن يشيد بجهود أساتذته المصريين فى الجامعة المصرية الذين بعلمهم وآثارهم فيه قد جددوا علمه بالحياة وفهمه لقديمها وحديثها ، وغيروا نظرته إلى مستقبل أيامه ، كما أتاحوا لشخصيته المصرية العربية أن تثبت وتقوى أمام ما يقدمه الأساتذة الأجانب من علم ومعرفة [٤٢] .

٢- الصدق :-

وثمة قضية يمكن أن تثيرها السيرة الذاتية بصفة عامة " والأيام " بصفة خاصة ، وهى حدود الصدق فى حديث الشخصية عن نفسها ، من حيث ذكرها الإيجابيات والمفاخر من ناحية ، والسلبيات والمثالب من ناحية أخرى ، وهنا نجد أن طه حسين كان جريئا من هذه الناحية مع شفافية إنسانية رقيقة تجعله فى مقدمة الرجال المتميزين لوضوحه وصراحته وصدقه ، وربما " كان كف بصره من أهم السلبيات التى هيمنت عليه " ، وقد تكرر الحديث عنه خلال هذا الجزء الثالث من سيرته ، كما تكرر أكثر من خمس مرات فى الفصل التاسع من هذا الجزء ، وقد وصف حالته بعدة أوصاف منها . فقدان البصر [٤٣] ، ومكفوف البصر [٤٤] ، والفتى المكفوف [٤٥] ، والضرير [٤٦] ، وأنها عورة [٤٧] ، حقيقة لم يتجاوز الواقع ، لكن هذه الأوصاف جاء بها ليبرز علاقته بغيره ، ووقع ذلك على نفسه ،

وبرغم إحساسه بهذه " الآفة " كما وصفها ، لكنها لم تطـا مـن عزيمته وإرادته ، بل كانت دافعا له على التفوق والتقدم وتجاوز العقبات ، كما تجلت فاعليته وقدوته .

بل لقد أبرز هذه الآفة فى الفصل الثالـث إبـارزا فنيـا إنسانيا فلسفيا ، شفافا ، ينم عن طبيعة الإنسان وهو يواجه " آفة " قد تكون أقوى منه ، مـن ثـم يتنازعـه انتـصاره عليهـا ، وانتصارها عليه ، كما يتراوح بين الضعف والقـوة ، واليـأس والأمل ، وهكذا يصورها شيطانا ماكرا مسرفا فى الدهاء يكمن متربصا به فى الأحناء والأثناء ، وقد يفاجئه مؤذيا له معـذبا ، ويرتبط بذلك سيل من الذكريات والمواقف التى تدور حول هـذه الآفة وفعلها فى الإنسان (٤٨) ، ولكن ذلك لم يفت فى عـضده ، بل ضاعف من صموده وصبره وجلده .

وها هوذا بعد أن أصبح رجاؤه قويا فى الابتعـاث إلـى فرنسا ، وكان يذهب صيفا إلى قريته ، فقد كان يغـيظ أخواتـه مبينا لهن أنه سيقيم فى أوروبا أعواما ، ويتزوج فرنسية متعلمة مثقفة ممتازة ، وليست جاهلة مثلهن أو غافلة (٤٩) ، وفى ذلـك ما فيه من كشف عن مستوى أهله ، وتطلعاته التى تتباين تباينا شديدا مع بيئته وأعرافها . ويتصل بذلك اتصالا وثيقا حديثه عن موقف أبيه وأمه قبيل سـفره فـى البعثـة وبعـدها وفرحهمـا وابتهاجهما وفخرهما بذلك ، وإن كانت الأم مهمومة بحاله خلال بعده عنها ، وطه حسين بذلك يكـشف عـن مـشاعر الأبـوة والأمومة الدافقة وما كان يملأ نفسيهما غبطة وسعادة ، وإدراكه هو شخصيا لهذا الموقف وفرحه به (٥٠) .

وكثيرا ما كان يصور مشاعر الكفيـف وهـو يواجـه المبصريين فى اللقاءات الخاصة ، وهو فى مثل هذه المواقف لا يخرج عن الصمت والسكون حتى ينتهى ذلك الموقـف ، هكـذا كان فى بيت علوى باشا ليتسلم العشرين جنيها التى رصدها لـه

كجائزة ، وقد دعاه هو وأساتذته لوليمة لم يصب منها طه حسين شيئا ، إيثارا للصمت والسكون حتى لا يقع منه مالا يحسب أو يرضى (٥١) .

بل إنه ليصف العشرين جنيها مبينا أنها تزيد على مرتب أبيه عن شهر كامل ملؤه ، الجد والكد والعناء ، وذلك دون أن يرى فى ذلك أى غض من أبيه وأسرته (٥٢) .

كما يسجل أدق المشاعر الإنسانية وأخفاها التى تموج بها نفس الإنسان عندما يواجه ما لم يكن يتوقع من عظائم الأمور وأرفع المواقف ، فقد ملأه خبر دعوة الخديوى له للسلام والتحية " بالخوف والفرق والسرور والغرور (٥٣) " ، وهى مشاعر متناقضة تؤكد إنسانية الإنسان وبشريته ، وتردده بين الضعف والقوة ، وهو يواجه بعض متغيرات الحياة .

وما أكثر هذه المواقف التى تكشف عن صدق طه حسين وشفافيته وإنسانيته .

٣- الفكاهة والتسلية والمتعة :-

من أهم أهداف السيرة الفكاهة والتسلية والمتعة ، التى تتمثل فى تحقق الجوانب الروائية فى السيرة كما سيتضح ، وما يتجلى خلال الصياغة الجمالية الممتعة فنيا ، بالإضافة إلى تحقق المفارقات المضحكة فى المواقف المتباينة ، وغير ذلك مما يثرى الجانب الوجدانى .

وما أكثر هذه المواقف التى تستثير الضحك ، منها ما أشار إليه طه حسين من أن كلا من الأساتذة المصريين والأجانب كانوا يتفكهون مع طلابهم ، فمن بين المصريين من كان يدعو طلابه إلى الطعام فى بيته ، ويقدم لهم من الطيبات ما لم يكن لأكثرهم به عهد ، ظانا أنه بذلك يردهم إلى شىء من الحياء ، حتى يتجنب سخريتهم ، ولكن هيهات (٥٤) ، ويكشف

ذلك عن طبيعة العلاقات بين الأساتذة والطلاب فى هذه المرحلة المتقدمة من نشأة الجامعة المصرية ، وما كانت تعمر بـه مـن مودة وتواصل .

كما كانت اللهجة العربية لبعض الأساتذة الأجانب تثيـر ضحك بعض الطلاب ، بل قد تملأ أفواههم بالضحك كما حكـى طه حسين (٥٥) ، وفيما سبق من السخرية والفكاهة ما فيه .

كما يحكى طه حسين عن حضوره دورة للفرنسية فـى الجامعة هو وصديق له ، ولم يكونا يجيدان بعـد هـذه اللغـة ، ولذلك لم يخرجا منها إلا بحفظ كلمة لافونتين التى رددها كثيـرا مدرس هذه الدورة التى لم يخرجا من هذه المرة إلا بهذه الكلمـة ، مما جعلهما يطلقان على هذه الساعة التى حـضراها " سـجن لافونتين " (٥٦) ،

وقد قدم طه حسين صورة كاريكاتورية تجمع بين الهزل والجـد لأحد أصدقائه الأزهريين الذى كان شديد النفـور مـن دروس الأزهر ، قليل الإلمام بمجالس الشيوخ ، وهو فى الوقت نفـسه غير حفى بالجامعة ودروسها ، وهو شخص غريب الأطـوار ، يضحك من نفسه ، وربما أغرى الناس بالضحك منه . وبـرغم أنه يعيش فى القرن الرابع الهجرى ، لكنه كمن يكون من أهـل القرن الثالث أو الرابع ، فهو يهمل زيه وشكله وهيئتـه ، تكلفـا فى مخالفة الناس ، لكنه كان معنيا باللغة وإتقانها وتتبع غريبها ، ويحفظ من ذلك الكثير ، كما كان شغوفا بالحياة الحديثة وطيباتها ، دون أن يتعمق هذه الحياة ، وقد حاول أن يتعلم الفرنسية ، فلم يحسن منها إلا تحية الصباح والمساء ، وبعض الجمـل القليلـة التى جعلتها صعيديته حين ينطقها مثيرة للضحك ، وبفضل هـذا الصديق قرأ طه حسين آثار أبى العـلاء وهـو يعـد رسـالته للدكتوراه ، ومن ثم فقد لازمه كثيرا ، خاصة وقد كـان يتغنـى بشعر أبى العلاء غناء عذبا جعل طه حسين يسمع منه ويحفـظ

عنه ويطرب لإنشاده وغنائه الذى كان بين الخشونة واللين ، وقد قرأ طه حسين هذا الشعر مرات ومرات ، وتأثر بشعر أبى العلاء ونثره مع صديقه هذا ، مما زكى من تأثير أبى العلاء فى طه حسين ، وقواه ودعمه ، كما كان هذا الصديق هو الذى تجرد لكتابة رسالتة للدكتوراه ، عندما أملاها عليه طه حسين ، بل هو الذى أثبت الشواهد الشعرية والنثرية لأبى العلاء فى الرسالة كلما احتاج طه حسين إلى ذلك (٥٧) .

موضوعية تفاعله مع الحياة والأحياء :-

ولقد كان طه حسين متفاعلا كل التفاعل مع زملائه ومن حوله ، خاصة عندما يلقى رفاقه ويسمع أحاديثهم ، قاضيا فيما كان يعن لهم من مشكلات، خاصة مشكلات الحب والغرام (٥٨). وليس معنى ذلك أنه برئ من هذه المشكلات ، بل لقد مر هو نفسه بتجربة حب غيرت حياته من شقاء إلى نعيم ، ومن وحشة إلى ألفة ومودة ، عندما التقى بقارئته الفرنسية التى قرأت عليه روائع الأدب الفرنسى القديم ، وجانبا من اللغات القديمة ، بل إنها ردت ما كان قد خيم عليه من آثار أبى العلاء النفسية : المشقة والجهد والتشاؤم واليأس والقنوط ، فأصبحت حياته إشراقا ونورا (٥٩) خاصة وأنه كان يتخيل مناجاتها له ، كلما ضاق بالحياة أو ضاقت به الحياة . وليس الآخرون – فحسب وتفاعله معهم – هم مصدر الفكاهة والتسلية ، بل قد تكون سخريته من نفسه مصدرا لذلك أيضا ،

وها هو ذا وهو فى طريقه بين نابلى وباريس فى القطار يصف نفسه بسقط المتاع (٦٠) :"ولم ينس صاحبنا قط أنه أجلس فى مكانه من القطار حين بلغ روما وقد انتصف الليل ، فلم يبرح مكانه ذاك إلى جانب النافذة إلا حين بلغ القطار باريس بعد ثلاثين ساعة كاملة لم يتحرك ، وإنما كان أشبه بمتاع قد ألقى

فى ذلك الموضع ، وانتظر حتى يبلغ القطار غايته لينقل إلى موضع آخر . لم يتحرك ، وكان أشبه شىء بالمتاع ، ولكنه كان متاعا مفكرا . يفكر مرة فيما حفظ من قول أبى العلاء إن العمى عورة ، وقد فهمه الآن على وجهه وهو يرفع يده بين حين وحين ليتحقق من أن ذلك الغطاء الرخيص الحقير مازال يستر عينيه

اللتين كان يجب أن تسترا".

٤- الموازنة بين التاريخ والفن :

ربما كان عنوان " الأيام " مشيرا إلى الجوانب التاريخية فى سيرة طه حسين ، لكن الترتيب التاريخي وتسلسله متتابعا ليس متحققا فيما أملاه طه حسين من سيرته لأنه يملى وغيره يكتب ، كما قد ترد بعض الأحداث متكررة أحيانا فى أكثر من جزء مع اختلاف الصياغة لها إجمالا أو تفصيلا ، وإن كان ذلك لا يعوق التصور الكلى لحياة طه حسين وترتيبها لدى قارئه .

ومن ثم فهو لم يذكر كل أيامه متتابعة ، وإنما اختار من مواقف حياته ما يكشف عن شخصيته ، وما واجه من عقبات ، واجتيازه لها ، مشيرا إلى معاصرته لبعض الأحداث التاريخية الكبرى كالحرب العالمية الأولى التى أدى قيامها إلى تأخر سفره فى البعثة مثلا ، وغير ذلك مما يمثل الجوانب التاريخية بالنسبة للشخصية ، واتصال الأحداث العامة بها ، أو اتصاله هو بها .

أما الجوانب الفنية التى تشكلت خلالها هذه الأحداث وحياة الشخصية ، فقد استطاع الكاتب أن يوازن بين الفن والتاريخ بما يحقق للسيرة جوهرها كجنس أدبى متميز .

فبرز الجانب الروائى القصصى بكشفه تدريجيا أحداث حياته، ومجالات تلقيه للدرس بالجامعة المصرية ، وحصوله

على الدكتوراه ، ثم بفرنسا بمونبليه وباريس بفرنسا حتى حصل على الدكتوراه أيضا .

بل ثمة ملامح أسلوبية قد تكون لصيقة بمعجم طه حسين اللغوى فى الصياغة كالتبادل بين الفاعل والمفعول للكشف عن استغراق الفكرة للشخصية وهيمنتها عليها :- " الحلم السعيد الذى داعب نفس الفتى وداعبته نفسه أعواما " (٦١) ، " بدون أن يداعبوا الحب أو يداعبهم الحب .. " (٦٢) ، وغير ذلك من العبارات الكاشفة عن نمو الحدث وتحول الشخصية .

والحديث غير المباشر عن النفس ، باستخدام ضمير الغائب ، والتجريد أحيانا ، وذلك بغية التأثير فى المتلقى ، بإيهام حيدة الكاتب ، ومن ثم يحظى بتقدير المتلقى وإعجابه .

ويرتبط ما سبق بثراء التكرير القرين بالإطناب المفيد غالبا فى البسط والعرض .

ويؤازر هذه الصياغة الاقتراض من القرآن الكريم اقتراضا يثرى الدلالة ، كما يكشف عن ملمح متميز فى أسلوب طه حسين وأثر القرآن الكريم فيه (٦٣) .

وهو بكل ما سبق قد تجلت ذاته فاعلة بخصوصيتها ، كما برزت موضوعيته فى إثبات هذه الذات جدارتها ، ومواجهتها للحياة ومتغيراتها .

الخاتمة

بعد هذه الجولة فى رحاب السيرة فنا ونماذج ، لعله قد اتضح كيف يجلى كتاب السيرة أهدفها : القدوة ، والفاعلية ، والتسلية ، وكيف يوازن كاتب السيرة بين الفن والتاريخ ، كى تتشكل تشكلا أدبيا خاصا بحيث أصبحت جنسا أدبيا متميزا .

وقد كشف تناول نموذجى السيرة الذاتية عن : شخصية الشيخ محمد عبده الصوفى المتبتل المجاهد من أجل أمته ودينها ولغتها ، وشخصية طه حسين الصابر المثابر من أجل العلم والمعرفة وبناء الذات بناء متكاملا يواجه الحياة فى أشد ما تصيب به الإنسان لكنه يغالبها حتى ينتصر عليها . وقد تجلى فى كلا النموذجين القدوة فى أجلى مظاهرها ، والفاعلية فى أقوى درجاتها ومستوياتها .

الهوامش:

١- الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده تحقيق وتقديم د . محمد عمارة دار الشروق - بيروت- القاهرة ط١ : ١٤٢٤هـ ١٩٩٣م ج٢ صفحة ٣٢٧.
٢- المرجع السابق نفسه ٣٢٨.
٣- السابق نفسه صفحة ٣٤٩.
٤- عبد الحليم الجندي الإمام محمد عبده دار المعارف ا ، القاهرة ١٩٧٩ صفحة ٧١ .
٥- قدم هذا البحث إلى ندوة رابطة الأدب الإسلامي فى القاهرة عن " الشيخ محمد عبده أديبا إسلاميا " في سنة ٢٠٠٦م .
٦- انظر الشيخ محمد عبده الاعمال الكاملة جـ٢ تحقيق وتقديم د. محمد عمارة ط١ سنة ١٤١٤هـ ١٩٩٣م دار الشروق - بيروت - القاهرة - من صفحة ٣٠٧: ٣٠٩.
٧- سورة النجم آية ٣٢.
٨- انظر محمد عبد الغني حسن : التراجم والسير سلسلة فنون الأدب العربي الفن القصصي دار المعارف - القاهرة- ب . ت صفحة ٩ ، وكذلك انظر د. عز الدين إسماعيل ، الأدب وفنون - دار الفكر العربي ط٢ سنة ١٩٥٨ صفحة ٢٤٤.
٩- انظر الأعمال الكاملة - للإمام الشيخ محمد عبده ج٢ صفحة ٣٠٧.
١٠- انظر السابق نفسه صفحة ٣٠٨.
١١- انظر إحسان عباس فن السيرة ط٢ سنة ١٩٩٢ دار الشرق - بيروت صفحة ١٢ .
١٢- انظر الأعمال الكاملة ج٢ ٣٢٠، ٣١١، ٣١٢ .
١٣- انظر د. طه مصطفي أبو كريشة - مجلة الأزهر عدد رمضان سنة ١٤٢٦ هـ مقال : الأمام الشيخ محمد عبده أديبا.

١٤- الأعمال الكاملة ج٢ صفحة ٣١١، ٣١٢.
١٥- السابق نفسه ، صفحة ٣٢٥.
١٦- السابق نفسه، صفحة ٣١٦.
١٧ - السابق نفسه والصفحة نفسها.
١٨- السابق نفسه والصفحة نفسها
١٩- السابق نفسه، صفحة ٣١٨.
٢٠- السابق نفسه ، صفحة ٣١٩.
٢١- السابق نفسه ، صفحة ٣٢٣ .
٢٢- عبد الحليم الجندي ، الأمام محمد عبده سلسلة أعلام الإسلام ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٩ صفحة ٩٤.
٢٣- انظر السبق نفسه البابين الثالث والرابع.
٢٤- انظر الأعمال الكاملة ج٢ ص ٣١٢.
٢٥- انظر طه حسن ، الأيام ج٣ ط وزارة التربية والتعليم بمصر صفحة ٢٤.
٢٦- انظر الأعمال الكاملة ج٢ صفحة ٣٢٧: ٣٢٨.
٢٧- طه حسين : الأيام جـ ٣ ، طبعة وزارة التربيـة والتعلـيم بجمهورية مصر العربية سنة ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م الجهـاز المركزى للكتب الجامعية و المدرسية والوسائل التعليمية .
٢٨- انظر السابق : الفصلين الثالث والرابع خاصة صـ ٣٦
٢٩- انظر السابق صـ ٢٢
٣٠- السابق نفسه صـ ٢٤
٣١- السابق نفسه صـ ٩ ، ١٠
٣٢- السابق نفسه صـ ٣٣
٣٣- السابق نفسه صـ ٤٢
٣٤- السابق نفسه صـ ٣١ : ٣٢
٣٥- السابق نفسه صـ ١٩
٣٦- انظر السابق نفسه صـ ١٥

٣٧- السابق نفسه و الصفحة نفسها
٣٨- السابق نفسه صـــ ١٦
٣٩- السابق نفسه و الصفحة نفسها
٤٠- السابق نفسه صـــ ١٦
٤١- السابق نفسه صـــ ٤٣
٤٢- السابق نفسه صـــ ١٣
٤٣- انظر السابق نفسه صـــ ٢٦
٤٤- انظر السابق نفسه صـــ ٢٨ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٣
٤٥- انظر السابق نفسه صـــ ٢٨
٤٦- انظر السابق نفسه صـــ ٧٧
٤٧- انظر السابق نفسه صـــ ٨١
٤٨- انظر السابق نفسه صـــ ٨٠ ، ٨١
٤٩- انظر السابق نفسه صـــ ٢٤
٥٠- انظر السابق نفسه صـــ ٤٧ ، ٤٨
٥١- انظر السابق صـــ ٤٥
٥٢- انظر السابق صـــ ٣٧
٥٣- انظر السابق نفسه صـــ ٤١
٥٤- انظر السابق صـــ ١٦
٥٥- انظر السابق نفسه صـــ ١٨
٥٦- انظر السابق نفسه صـــ ٢٣
٥٧- انظر السابق نفسه صـــ ٣٢ ، ٣٣
٥٨- انظر السابق نفسه صـــ ٦٤
٥٩- السابق نفسه صـــ ٦٦ ، ٦٧
٦٠- انظر السابق صـــ ٨٤
٦١- السابق نفسه صـــ ٤٧ وكذلك فى صـــ ٥١ ، ٥٣ ، ٥٨
٦٢- السابق نفسه صـــ ٦٤ ، وكذلك صـــ ٧٢ وغيرهما
٦٣- انظر على سبيل المثال صـــ ٥٢، ٥٥، ٦٢، ٧٢، ٧٦، ٨٦

الفهرس

فاتحة ٣

◎ الفصل الأول

فن السيرة

- بين المعنى اللغوى والإصطلاح الفنى ٥
- السيرة الغيرية ، والترجمة الذاتية ٦
- بين السيرة والقصة ٧
- بين السيرة والتاريخ ٨
- أثر السيرة النبوية الكريمة فى اهتمام المسلمين بكتب السير والطبقات والتراجم ٩
- ابتعاد السير عن الإسناد ١٠
- بعض خصائص كتابة السيرة النبوية ١٢
- أهمية الغاية الخلقية فى السير والتراجم ١٣
- دوافع كتابة السيرة ١٤
- ١ – الاهتمام بالتاريخ
- ٢ – النزعة الأدبية
- تحليل نموذج للجاحظ وسماته
- تحليل نموذج لأبى حيان التوحيدى وسماته ١٥
- تحليل نموذج للباخرزى وسماته ١٩
- ٣ – السمر والتسلية
- مظاهر التباين تبين السير ٢٢
- أنواع السير ٢٥
- السيرة الذاتية ٢٨
- السيرة الذاتية فى الأدب العربى ٣١
- من شروط السيرة الفنية ٣٢
- من خصائص كاتب السيرة

- من خصائص صاحب السيرة
- هوامش الفصل الأول ٣٣
- الفصل الثانى
نماذج من السيرة الذاتية الحديثة
- الملامح الفنية للسيرة الذاتية عند الشيخ
محمد عبده ٣٦
- التوفيق بين المثال والواقع ٣٧
- التوازن بين الروح الروائية القصصية
والحوادث التاريخية ٤١
- التحليل التاريخي ٤٣
- الفاعلية والقدوة ٤٧
- أهمية تعلم اللغة الأجنبية ٤٩
- الأيام لطه حسين : بين الذاتية والموضوعية ٥١
- مدخل
- الأيام جـ ٣
- التعريف بطه حسين ٥٢
- خصائص الأيام : ٥٣
١- القدوة .. والفاعلية :
أ - عقبات التعليم الجامعى
ب - تعلم اللغات الأجنبية ٥٤
ج - أهمية الصداقة ... والأصدقاء ٥٥
د - أساتذته وتلاميذه وزملاؤه ٥٦
٢- الصدق ٥٨
٣- الفكاهة والتسلية والمتعة ٦٠
٤- الموازنة بين التاريخ والفن ٦٣
- الخاتمة ٦٥

كتب أخرى للمؤلف

١- الكلمة والبناء الدرمى - دار الفكر العربى - القاهرة ١٩٨١ ، ط٢ ٢٠٠٠ .
٢- الاتجاه النفسى فى نقد الشعر العربى - مكتبة المعارف - الرياض - سنة ١٩٨١ م .
٣- الأدب الإسلامى قضية وبناء - مكتبة عالم المعرفة - جدة سنة ١٩٨٣ م .
٤- البلاغة العربية بين القيمة والمعيارية - مطبعة الطوبجي - القاهرة سنة ١٩٨٣ م .
٥- فى الأصالة وبناء المسلم - مكتبة العليقي الحديثة - بريدة سنة ١٩٨٥ م .
٦- فى البنية والدلالة رؤية لنظام العلاقات فى البلاغة العربية
٧- فى الدراما .. اللغة والوظيفة - منشأ المعارف الإسكندرية سنة ١٩٨٨ م . ط٤ سنة ٢٠٠٨ م
٨- معالجة النص فى كتاب الموازنات التراثية - منشأة المعارف الإسكندرية سنة ١٩٨٩ .
٩- قراءة فى ديوان الشعر السعودي - مكتبة الرضا - القاهرة سنة ١٩٨٩ م .
١٠- البنية الفنية والعلاقات التاريخية - دراسة فى الأدب المقارن سنة ١٩٩٠ م .
١١- أثر جي دي مويسان فى القصة القصيرة مكتبة الرضا سنة ١٩٩٠ القاهرة .
١٢- النص الأدبى للأطفال رؤية إسلامية ط١ . رابطة الأدب الإسلامى العالمية سنة ١٩٩٣ م . ط٢ سنة ٢٠٠٥ م .
١٣- فى جماليات الأدب الإسلامى - المجموعة المتحدة للطباعة سنة ١٩٩٦ م .

١٤ – التعبير الدرامي دراسة نصية الطبعة الثالثة المجموعة المتحدة للطباعة ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م .
١٥– التراث والمتغيرات – البلاغة العربية نموذجا – المجموعة المتحدة للطباعة ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩ م .
١٦– أدب الأطفال التنموي إصدار نادى القصيم الأدبى ١٤٢١ هـ – ٢٠٠٠ م .
١٧ – الأدب الإسلامى بين الشكل والمضمون – ملامح إسلامية فى الشعر والقصة والمسرحية – المجموعة المتحدة للطباعة القاهرة ١٤٢١ هـ – ٢٠٠٠ م .
١٨– فى السرد نظرة تاريخية وقراءة لنماذج مختارة ، المجموعة المتحدة للطباعة القاهرة ١٤٢١ هـ ٢٠٠٠ م .
١٩– اتجاهات حديثة فى أدب الأطفال ٢٠٠٢ م .
٢٠– النقد الأدبى الحديث : أسسه الجمالية ومناهجه المعاصرة (رؤية إسلامية) ١٤٢٥ هـ – ٢٠٠٤ م .
٢١– المقالة الإصلاحية فى أدب الشيخ محمود شاكر سنة ٢٠٠٥ م . القاهرة مطبعة الطوبجى .
٢٢– الحياة تتجدد : مجموعة قصصية ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م المجموعة المتحدة – القاهرة
٢٣– الذى لا يقهر : مجموعة قصصية ١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٦ م.
٢٤– الشعر قيمة إنسانية متجددة ١٤٢٩ هـ / ٢٠٠٨ م مطبعة المصطفى ببنها .